لورانس ديونا

صور حية من إيران

د الملالي

١٩٨٥ - ١٩٩٨

ترجمة: محمد مستجير مصطفى

لـــورانــــس ديـــونـــا

صور حية من إيران

أوربية في بلاد الملالي

١٩٨٥ـ١٩٩٨

ترجمة: محمد مستجير مصطفى

كتاب سطور

هيئة التحرير:

اعتدال عثمان

فاطمة نصر

ـ الكتاب: صور حية من إيران

ـ الكاتبة: لورانس ديونا

ـ المترجم: محمد مستجير مصطفى

ـ غلاف وإخراج: جوبي

ـ الجمع والتنفيذ: عصام عيسوى

الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٠

رقم الإيداع ٢٣٩٦ / ٢٠٠٠

٨ و٢٣ تقسيم الشيشيني بجوار الكوبرى الدائرى

كورنيش المعادى ت: ٥٢٤٠٠٢٠ / ٥٢٦٣٥٩٩

e.mail address: sutour@misrnet.com.eg

صدر في هذه السلسلة:

١ ـ محمد «سيرة الرسول»

٢ ـ صدام الحضارات

٣ ـ عصر الجينات والإلكترونات

٤ ـ القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث

٥ ـ العولمة والعولمة المضادة

٦ ـ التاريخ السرى للموساد

٧ ـ حريم محمد علي باشا

٨ ـ من يخاف استنساخ الإنسان؟

٩ ـ عولمة الفقر

١٠ ـ صور حية من إيران

تتقدم الكاتبة
بشكرها
إلى سلطات
جمهورية إيران
الإسلامية لما وفرته
لها من تسهيلات..

وإلى عالم الاجتماع والكاتب الإيرانى إحسان ناراغي من اليونسكو الذى علمها الكثير عن بلاده، وعن اضطراباتها..

وإلى رسام الكاريكاتير مسعود شوجاى طبطابى الذى قدمها إلى رجال القلم والفرشاة والصورة..

وإلى المترجم إيراجى كابولي لموهبته في ترجمة الأشعار..

وإلى زوجها فرج موسى..

وإلى كل النساء والرجال الذين ساعدوها، والذين قد يتعرفون على أنفسهم فى هذه الصفحات.

مقدمة

ما هى صورة إيران فى الخارج ؟ لماذا يقولون فى كل مكان إننا إرهابيون ؟ كيف نحافظ على ثقافتنا فى وجه أمريكا ؟ أيمكن أن تنتقدوا رئيس الدولة فى بلدكم ؟ حين يستحيل عليكم كتابة الحقيقة فماذا تفعلون ؟

لقاء مرتجل فى مدرسة الإعلام فى طهران . . نصبونى فوق مقعد ، خلف طاولة محاضر ، ومفروض أن أتحدث إليهم : عن الصحف والصحافة ، عن تجربتى الطويلة ككاتبة (ريبورتاج) . . عن كل ما أحب أن أتحدث عنه . . ثم بوجه خاص أن أجيب على أسئلتهم . واصطفت أمامى عدة فصول من دارسى الصحافة المبتدئين . . فى الصفوف الأولى الأولاد فى (بلوفرات) وقمصان . . ثم فى المؤخرة الأشباح الداكنة للفتيات المنقبات .

نظرت إليهم وهم يجلسون فى أدب عند قدمى فوق سجادة المسجد ، فلدى مدرسة الإعلام ، ككل مؤسسة من مؤسسات الدولة فى إيران مكان استقبالها الخاص الذى تؤدى فيه الصلوات عدة مرات خلال النهار ، فلماذا المسجد إذن ؟

لسبب وحيد هو أن مساحته واسعة، وأنهم كانوا من الكثرة بحيث لا تسعهم أى قاعة للدرس. شباب فى العشرينيات، يتعطشون لكل شىء، لأنهم ولدوا مع الثورة الإيرانية، ونموا معها فى عزلة، ونظرت إليهم وفى رأسى تدور فكرة: ولكن أى اختلاف! من كان يمكن أن يتصور مثل هذه المواجهة منذ بضعة شهور فحسب؟

كنا فى يناير ١٩٩٨، وكان محمد خاتمى الرئيس الجديد الذى انتخب فى عام ١٩٩٧ قد مر من هنا، إن إيران تنفتح.

وهذا الكتاب هو جماع ذكرياتى.. لم تكن بهيجة دائماً هذه الذكريات فى عام ١٩٨٥، ولكن أيمكن أن تكون الثورة والحرب بهيجتين. وترجع أحدث الفصول إلى ديسمبر ١٩٩٧، ويناير ١٩٩٨، هذا الكتاب الذى جاء حصيلة كثير من الرحلات متباعدة الزمن إلى جمهورية إيران الإسلامية يمكن أن «يثير الاضطراب» فى العقول شديدة الديكارتية.. ولكن على أى حال أليس الاضطراب هو الحياة؟ فما أمامنا هنا هو الحياة.. صور وانطباعات وتأملات وأسرار وأصوات.. كثير من

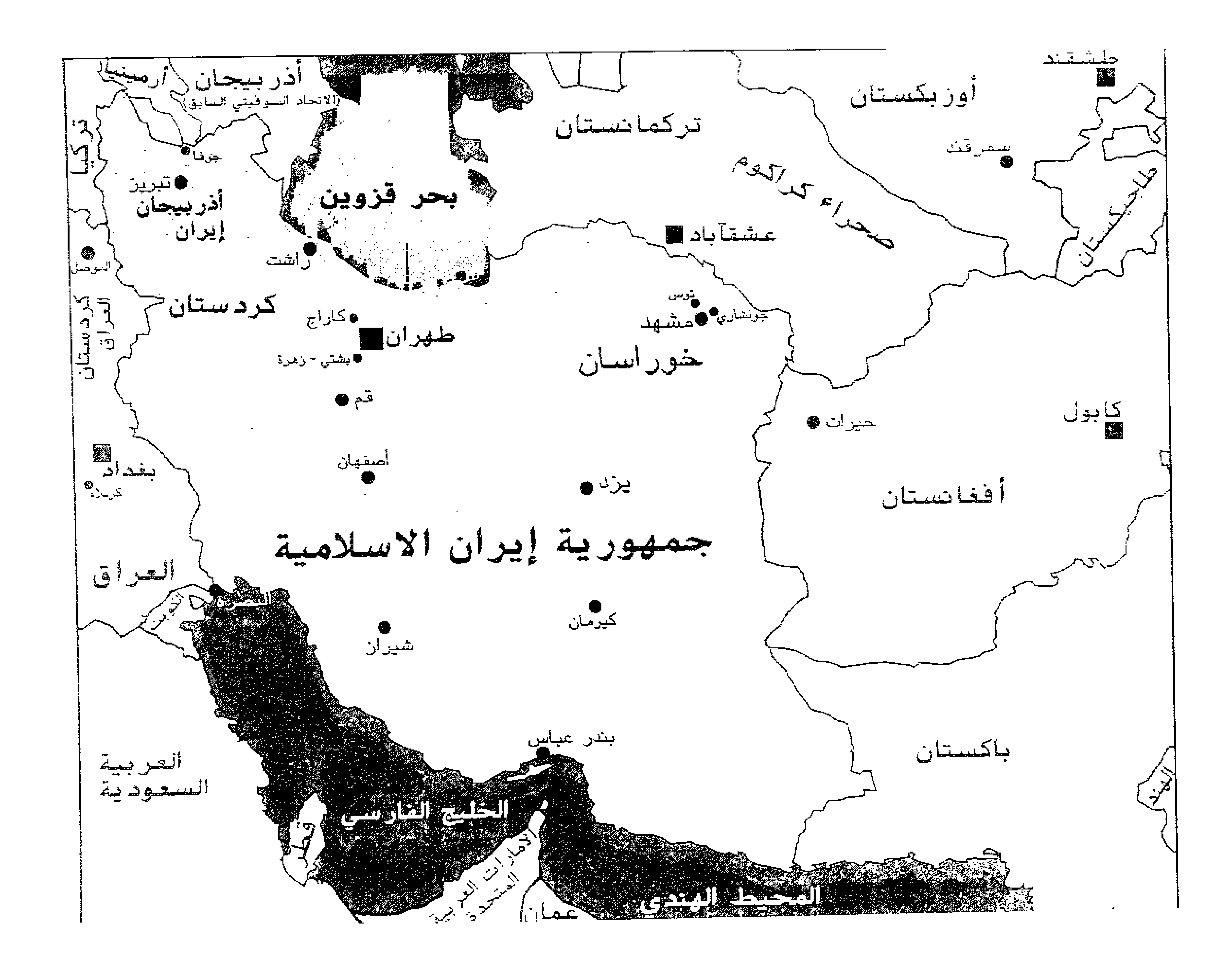
الأصوات التي تمتزج مع صوتي.

لم أستطع أن أمضي إلى كل مكان، فإيران شاسعة الأبعاد، كما لم يكن هذا هو غرضي، فليس هذا الكتاب دليلاً سياحياً ولا هو تحليل سياسي، فكل ما أردته هو أن أرى وأسمع. وأن أحاول أن أفهم، بقدر ما يمكن أن تفهم ثورة ليست بالقطع ككل الثورات الأخرى، أتراني نجحت في ذلك؟

والأمر المؤكد. على العكس، هو أن كل الشهادات الواردة هنا، سواء كانت رسمية أو ودية أو جاءت مصادفة، أو حتى مخاطرة! تعكس جميعاً، كل بطريقتها، شيئاً صغيراً ما من الستين مليون إيراني ورثة حضارة ترجع إلى ثلاثة آلاف سنة، وهم وإن غلبهم اليوم عنف تاريخهم يظلون مع ذلك في مجموعهم. وفيما وراء التشنجات السياسية، أناساً ودودين للغاية.

لورانس ديونا

جنيف - أبريل ١٩٩٨


جمهورية إيران الاسلامية
بحر قزوين
الخليج الفارسي
المحيط الهندي
تركيا
أرمينيا
أذربيجان
(الاتحاد السوفيتي السابق)
تركمانستان
أوزبكستان
طاجيكستان
صحراء كراكوم
أفغانستان
باكستان
الهند
العراق
كردستان العراق
العربية السعودية
الإمارات العربية المتحدة
عمان
الكويت
أذربيجان إيران
كردستان
خوراسان
طهران
كاراج
بهشتي - زهرة
قم
أصفهان
يزد
كيرمان
شيراز
بندر عباس
تبريز
جوفا
راشت
الموصل
بغداد
كربلاء
البصرة
مشهد
توس
جونشاري
عشقآباد
سمرقند
طشقند
كابول
حيرات

إلى الشمال

خريف عام ١٩٩٧ . . عند الفجر . . سماء زرقاء يشوبها لون رمادى وردى شاحب ، وفى خلفية المشهد دائماً سفوح سلسلة جبال ألبورز ، سفوح مازالت رمادية وعارية في نهاية شهر أكتوبر هذه ، فبدايات الجليد لن تأتي إلا فيما بعد .

الطائرة من طهران إلى مشهد ، باب دخول للرجال وآخر للنساء ، فالمطار يطيع حرفياً تعليمات الحكومة ، و«محل الدعوة الإسلامية» يفتح لك ذراعيه الروحانيتين ، ويغص بمصاحف (كنج سايز) ومصاحف صغيرة الحجم ، والملصقات الموحية ، وأشرطة ترتعش بأصوات كبار رجال الدين العشرة ، أما أنتن أيتها السيدات فحتى لا تنسين ثمة تحذير يحرص على أن ينبهكن ، شأن كل الأماكن العامة وكل الإدارات وكل سيارات

الأجرة: الزى الإسلامي إلزامي.. ولكن.. هذه النظرة المتبادلة بين شاب وفتاة في طابور الانتظار! واحدة من تلك النظرات المختلفة التي تقول: «... كان كل شيء رائعاً.. والأروع أن تعرف أننا سنكرره من جديد!»... نظرة كملايين غيرها تصادفها على الأرض، لكنها نادرة هنا حتى لقد اهتزت كل مشاعرى حين فاجأتها.

التفتيش.. وخلف ستارة أخذت امرأة فظة ملتصقة بمقعدها تتحسسني دون حماس.. ثم الحافلة، والسلم، والطائرة. «برجاء ربط الأحزمة»! والحق أن هناك ما يدعو إلى ربطها: طائرة سوفييتية قديمة أعيد تجديدها بشعار جمهورية إيران الإسلامية، وهى تذيع قبل الإقلاع مقطوعات لاريك ساتييه.

وقطعت رحلة هادئة، وعبر الممر ذاته انحنى كثير من الركاب ليقولوا في استحياء لهذه الأجنبية «مرحباً بك في إيران»!

مشهد..

قدس الأقداس

هبوط بطيء إلى «مشهد» التى تتداخل حين تنظر إليها من السماء مع الأرض المنبسطة فى ألوان تتدرج من لون الصوف إلى لون الحرير، إنها بصفوف منازلها المتربة، ومساحات أسقفها المدرجة، مدينة على مستوى الأرض وفى لون الأرض. صحيح أن بضعة أبراج حديثة تنتصب هنا وهناك، لكنها مغشاة بالغبار حتى لا يكاد المرء يراها. وتمتد حول هذا السهل الجاف أبسطة خضراء واسعة من البساتين.. خضراء كالحياة.

وهبطنا.. ولمحت، راقدة فى ركن من الممر، طائرة مروحية عسكرية سوفييتية صغيرة لطخ هيكلها بالألوان لإخفائها، وتمت الإجراءات سريعاً، ثم جاءت المفاجأة: فباب الخروج من المطار يطل على النعيم، ففى حين تتوقع فى المطارات الأخرى طرقاً واسعة كئيبة تحفها مناطق صناعية أكثر كآبة، فإن الطريق المؤدى إلى «مشهد» مليء بالزهور.. أدغال من الزهور.. فيض من الزهور، يصلك عبيرها فى نفحات، فينسيك رائحة القار الذى صهرته الحرارة.. فردوس حقيقى من صنع الله.

الله الذى تعيده إلى ذاكراتنا هذه اللوحة الحية«الله أكبر» المكتوبة بحروف هائلة فوق خضرة أحد التلال، حروف مكتوبة بالحصى الأبيض، يمكن رؤيتها من على بعد كيلو مترات من كل الاتجاهات، ذلك أن «مشهد» عاصمة خراسان هى أهم مدينة مقدسة فى إيران: تنقطع أنفاسك إذا أردت أن ترى مدينة أكثر منها تديناً، وأكثر وقاراً، وأكثر صرامة فى نسكها، تنقطع أنفاسك ضجراً.

ـ أتعرفين أن «مشهد»، ثانية مدن البلاد، لا تضم سوى ست دور للسينما لستة ملايين نسمة؟

وتعترف مهناز، دليلتى، أنه ما من يوم يمر عليها فى مشهد إلا واشتاقت لأنوار

العاصمة على قلتها.

وهى مترجمة محترفة، أعارها لى ناصر وايزتوباسى، أحد أكبر رجال الأعمال فى المدينة، وكان أبوه، آية الله توباسى، قد آلت إليه مع الثورة مهمة مهيبة: إدارة مؤسسة آستان قدس رجاوى فى خراسان، وهى مؤسسة دينية بالغة الثراء ترجع إلى أكثر من ألف عام.

وتمضى مهناز لتقول ـ هاجرت مع أسرتى إلى «مشهد» أيام الحرب هروباً من الغارات العراقية، ثم قرر والدى البقاء هنا، وعلىّ أن أرتضى هذه الحياة، هذه المدينة، وأن أرتدى نقاباً زائداً.. لكم أكره هذا النقاب!

لا الفن ولا الطريقة

فلنتحدث إذن عن النقاب... حتى هذا اليوم كنت أتصرف بخفة فى طرق جمهورية إيران الإسلامية، أكتفى بارتداء وشاح، ومعطف يصل إلى القدمين، وسروال يغطى الساقين، وجوارب داكنة، وحذاء مغلق، أما عند التجول فى مشهد، فى الحرم المقدس الذى يحيط بمقام رضا، الإمام الشيعى الثامن، فلا أستطيع التصرف على هذا النحو. فالشادور إلزامى.. إنه الحقيقة الحقة.. أمتار وأمتار من القماش الأسود.. ترتدى فوق كل الملابس الأخرى.

وأخرجت مهناز، المخدومة دائماً، واحداً من سلتها، ولم أكن أمتلك الفن ولا الطريقة، (فالأستيك) يفلت من رأسى، والقماش ينزلق، وكدت أسقط أرضاً وقدماى تضلان بين الطيات فى اللحظة التى كنت أدخل فيها مكتب الدكتور بارودارن، المدير الإدارى للمجمع الدينى الكبير:

ـ آسف يا سيدتى.. أرى أنك تجدين صعوبة مع هذا.. هذا.. ماذا تسمونه

بالفرنسية ؟

ـ Le voile يا سيدى المدير .

إن رجلنا قد أنهى دراسته في باريس، وأى متعة أجدها وأنا أسخر منه اليوم بلغتي الأصلية . . إذا كان كل شيء بسيطاً ياسيدى فلماذا لا تحاول أنت أن ترتدى الشادور ؟ !

وارتفعت همهمة ارتياح في الرواق، ومهناز تعرب عن ابتهاجها .

هل كنت أحلم ؟ أمازال يفكر في ضفاف السين ؟ خيل لى أنني أرى خلف لحية الدكتور بارودارن وفى عينيه المجهدتين نوعاً من المشاركة .

مؤسسة غنية بالإيمان والأموال

والحديث مازال مستمراً .

وحسبما يقول فإن أنشطة أستان قدس رضوى لا تنتهي، لأنها لا تكف عن التكيف مع كل الظروف وكل الفرص، ياللقوة ! وهذا أمر لا يحاول بارودارن حتى أن يخفيه :

ـ الحكومة هى التى تحتاج إلي المؤسسة . . وليس العكس .

والمؤسسة اليوم في كل مكان، تصنع الأموال من كل شيء، وهى تستخدم ستة عشر ألف شخص، وتمتلك أراضى تكاد مساحتها تعادل مساحة سويسرا . . مزارع، ومصانع لحفظ المأكولات، ومعامل، ومصانع وورش على أحدث طراز، وتصدّر المؤسسة في جميع الاتجاهات وللعالم أجمع: الفواكه والزهور والخضروات ولحم البقر والدجاج والبسكويت والسكر والكعك والبونبون وعصير الفواكه والفواكه المحفوظة والسجاد والمنسوجات والقطن والأدوية والأمصال وجرانيت الزينة، وغير ذلك الكثير .

ومن كل هذه الاستثمارات المزدهرة تولد المساجد والفنادق والمدارس والمستشفيات والعيادات والمقاصف والجامعات والمكتبات ودور النشر والطرق والجسور وقضبان السكك الحديدية . .

ـ بل إن المؤسسة أعادت بناء مدينة بأسرها هي الجوازية التي سواها العراقيون بالأرض أثناء الحرب، وفي وقت لاحق أعادت تماماً بناء المدارس التي دمرتها الهزات الأرضية التي عصفت بمقاطعتنا خراسان.

فاتيكان الشيعة

ولكن فلنعد إلى الخلف، فالحق أن هذا اللقاء مع المدير لم يكن سوى امتداد ليوم طويل، لم أكف فيه عن أن أملي عيني ـ وكانت مهناز قد حصلت لي، أنا غير المسلمة، على تصريح بدخول الحرم المقدس ـ بكل الروائع التي أقيمت هنا تمجيداً للرب.

ولنكن أمناء، فكل من يتوقع أن يرى، في «مشهد»، حلماً في صحراء قاحلة، سيخيب المكان أمله لدى الوهلة الأولى، فثمة أراضي بور سديمية تحيط بالأماكن المقدسة، ممرات تفغر فاها، وطرق مجهضة، (والسقالات) تشوه المساجد، ويبدو أنها (سقالات) خالدة بدورها كالأزل نفسه، فبفضل سخاء المؤسسة لا يتوقف التجديد والتوسيع أبداً.

غير أن من حسن الحظ أن كل هذا الركام لا يحول دون لحظات الجمال، فالمآذن الذهبية، حين تنظر إليها من بعيد، تعكس سياط أشعة الشمس الأخيرة، وبريقها يبهرك، ويخلب لبك.

ثم هناك الحياة التي تمضي، إنها تصخب في الشوارع المتاخمة للحرم المقدس، وتتدافع في الأسواق المغطاة، والناس يبيعون ويشترون على الدوام ـ لا أشياء جميلة وإنما في الواقع أشياء زهيدة للغاية، والرجل صاحب الببغاء الأزرق الذي يمارس تجارته على الطور نفسه، ينحني فوق قفصه الصغير الذي يودع فيه طائره عندما ينتهي اليوم. والطقوس هي نفسها دائماً، فالطائر المدرب ينقر بمنقاره في سلة، ويلتقط منها بالصدفة قطعة ورق صغيرة، دونت عليها واحدة من تلك

الحكم العامة البالية الرثة.. ومع هذا يجد كل امرئ فيها نفسه، أو يتصور أنه يجدها.

وباعة الملصقات والصور المقدسة أقل انتشاراً هنا منهم في روما، والصور بدورها أقل تكلفاً، مرسومة بألوان صاخبة، في صخب تاريخ هؤلاء الشيعة الذين تنتصب عقيدتهم اليوم أمامي هائلة، باللونين الأزرق والذهبي.

فلنلق الضوء أمام القارئ، يمثل الشيعة عشرة في المائة من مسلمي العالم - فالجماعة الإسلامية تتألف في غالبيتها العظمى من السنة، وقد انفصل الشيعة عن السنيين لأسباب سياسية أكثرمنها دينية، إذ رأوا أن خلافة محمد لم يكن ينبغي أن تؤول إلى الخلفاء الثلاثة الأول، أبي بكر وعمر وعثمان، وإنما إلى علي، ابن عمه وصهره، وبعد وفاة علي التف أنصاره حول ابنه الحسين، الذي قتله الأمويون في عام ٦٨٠ ميلادية في كربلاء، المزار الشيعي الكبير، الذي يقع اليوم في العراق. وتمثل ذكرى الحسين الشهيد، وفكرة أن السلطة الشرعية لا تنبثق إلا من إمام من نسل علي هو المرشد الروحي الأسمى، حجر الزاوية في العقيدة الشيعية، ويؤمن شيعة إيران بالإمام الثاني عشر، «الإمام الغائب»، الأشبه بالمسيح الذي سيعود إلى الظهور ذات يوم قبل نهاية العالم، بل إن بعض السذج اعتقدوا أنهم رأوه مجسداً في الخميني...

و«مشهد» ليست كربلاء، ولا يمنع هذا أن ما لا يقل عن اثني عشر مليوناً يحجون إليها كل عام، قادمين من أذربيجان (الاتحاد السوفييتي السابق) وباكستان والهند وأفغانستان والعراق والعربية السعودية وإمارات الخليج، بل حتى من الجانب الآخر من الأطلسي، من الولايات المتحدة وكندا، وبمساندة حارة من الأشقاء الإيرانيين رأى مسلمو يوغوسلافيا السابقة عقيدتهم تنبعث من جديد، ومن هنا كان وجود هذا العدد الكبير من أبناء البوسنة في «مشهد» في السنوات الأخيرة. ومن حق كل حاج الحصول على وجبة مجانية يومياً، تقدمها المؤسسة كلية الوجود.

رجاء ياسيداتي، قبل أن تدخلن الحرم المقدس، أن تتركن حقائب أيديكن وأجهزة التصوير في «شُباك الأخوات». ثم غرقت أنا ومهناز في البحر، البحر

البشرى الذى يتدفق دون توقف فى أروقة المدخل.. غمرنا البحر وطوانا فى طياته، بقعتان سوداوان تطوفان بين مئات الآلاف من البقع الأخرى. ولم تكن مهناز تمزح تماماً، حين همست لى أن الأزواج لا يتعرفون على زوجاتهم فى هذا الحشد إلا بأحذيتهن.

قيل إن المرء يمكن أن يموت من المتعة، ونستطيع هنا أن نقول إنه قد يموت من الجمال. غير أن فى هذا الجمال شيئاً ما ثقيلاً إذا قارنته بأصفهان مثلاً، حيث النسب محكمة والأبعاد بشرية. فضريح رضا، الإمام الشيعى الثامن، ينتصب هنا فى (ديكور) عملاق، بقباب هائلة، وأقبية فى اتساع الاستادات الرياضية، وصفوف البواكى والممرات لا تنتهى، بنيت من عدة طوابق.. وهج من المرمر والموازيكو والكوى والثريات والأرابيسك والجدائل والمعشقات والقوالب والترصيعات والدانتلا الخشبية والسقوف المجوفة أو المشطوفة بآلاف المرايا التى تلمع بالانعكاسات.

مقادير هائلة من الذهب، لا يسع المرء إزاءها فى فاتيكان الشيعة هذا إلا أن يفكر، كما يفعل فى روما يسوع، فى ذلك النبى الذى كان فيما مضى يلاقى ربه وحيداً وسط صحراء جرداء تماماً.

القرآن والإلكترونيات

مكتبة آستان قدس رضاوى التى أقيمت منذ ستة قرون، والتى ترتبط اليوم بشبكة الإنترنت، مكتبة باهرة، ٢٨٠٠٠ متر مربع من الروائع، وبهاء الهوائيات يتزاوج مع أكثر الإلكترونيات تقدماً، ويحف بضريح الإمام الثامن، ولو أن الإمام الذى عاش فى أيام هارون الرشيد المجيدة قد عاد إلى الحياة لأصابته بالذهول.

ويحكى لنا المآثر راوية يتحدث بالإنجليزية.

ـ معدل التردد ٥٠٠٠ طالب يومياً، وخدماتنا مجانية، وتضم المكتبة حالياً

نصف مليون كتاب، تحت تصرف باحثينا، لكن لدينا مكاناً كافياً لاستقبال ما لا يقل عن خمسة ملايين كتاب. و ٣٥٠٠٠ من كتبنا ليست بالفارسية، وإنما موزعة بين خمس وخمسين لغة. وبعد مشاورات مع خبراء من الهند ومن فرنسا أقيمت إدارة مكلفة بالمحافظة على المخطوطات والمنمنمات القديمة. ويتحكم جهاز متقدم لقياس الرطوبة في رطوبة الجو، فهذه الأخشاب الثمينة وهذه المواد الرقيقة هشة للغاية، وقد نقلت بعض الأعمال القرآنية النادرة إلى (الميكروفيلم)، وعلى يد فنانينا، وكبار خطاطينا، يعيش تراثنا.

أما أنه يعيش، فهو يعيش، حتى وإن افتقر أحياناً إلى رقة ورشاقة الماضي.. شأن هذا المدرج الذي يضم نحو ألف مقعد وثير لكن ديكوره مفتعل باهظ التكلفة، وشأن مسجد المكتبة الذي تفتقر أخشابه المرصعة إلى اللمعة، لكن هذا لا يقلل من جلال المكان، فالمسجد بأسره يستند إلى عامود رئيسي منحوت على شكل عرش، يتسع عند السقف في انبساط دائري يحاكي أوراق النخيل.. تحفة تستحضر تلك الشجرة المقدسة التي كان النبي فيما مضى يعظ تحت أغصانها.

ورحابة هذه الممرات المرصوفة بالرخام مذهلة، وكذلك عدد الحاسبات الإلكترونية، وآيات القرآن تتتالى فوق اللوحات الإلكترونية كأسعار البورصة في الأماكن الأخرى.

ويمضي الدليل ليقول:

- ونحن مشتركون كذلك في ألف ومائتي صحيفة يومية ودورية، يمكن أن يطلع عليها الجميع.

وزيارة لقاعة الصحف، أو بالأحرى لقاعات الصحف، فما من شيء هاهنا بالمفرد، والرجال على أحد جانبي الممر، والنساء على الجانب الآخر، إنه عالم مزدوج، لابد وأنه يكلف الكثير.

وماذا بعد؟ هكذا ستقولون لي، ماذا عن ضريح الإمام الثامن؟

إن وضعي كامرأة غير مسلمة قد حال بيني وبين دخوله على ما يبدو. وتبقى الخدعة. فبفضل واحد من هذه (الاستوديوهات) التي يلتقط فيها الحجاج صورة

للذكرى، التقطت لي صورة أمام نسخة من الضريح . . بالكرتون .

أسيرإلى حيث يقودني فضولي

فلنستمتع بالشمس التي لم تكد تشرق، وبضوئها الرقيق، لنستمتع قليلاً بجمال الأشياء، ولنفتح الباب المؤدي إلى الشرفة على مصراعيه، ولنطل على الحدائق، واأسفاه ! ما من نسيم رقيق أو شمس لطيفة تداعب بشرتي ! فثمة تحذير معلق خلف باب الغرفة يحظر على السيدات «الظهور في شرفة الفندق بملابس النوم»، وبعبارة أوضح «لا تظهرن إلا بالزي الإسلامي، مرتديات الخمار».

بالأمس، عند وصولي إلى فندق (حوما) الفاخر في مشهد رأيت عمالاً يقومون بتركيب صوبة كبيرة من البلاستيك المعتم حول أحد المروج ـ لزراعة نباتات نادرة؟ إن شئت . . وإنما في الواقع لإخفاء حوض السباحة، والسماح للنساء بالاستحمام فيه بدورهن . . تلك هي القاعدة في إيران، فكل من الجنسين (يبلبط) في ساعات وأيام مختلفة، بشرط إخفاء أحواض السباحة . . فهذا أمر بديهي.

الساعة السابعة، ومهناز الكريمة تضحي من أجلي بيوم عطلتها، وتنتظر في صبر تحت سقيفة الفندق، سقيفة يعلوها عبارة «تسقط أمريكا» مكتوبة بحروف كبيرة، وإلى جوارها لافتة مضيئة موجهة لنا نحن «الزبائن الأعزاء»: «لما كان الحجاب الإسلامي هو الرمز الحي لموقف حضارتنا الإيرانية من المرأة، نرجو احترام ثقافتنا».

وأنا أحترمها . . أحترمها . .

وما كدنا نصل إلى الطريق حتى أخذت مهناز تترصد إحدى سيارات الأجرة. وفجأة غادرت عيناها حركة الطريق، ووجهت لي نظرة ثابتة:

ـ أتصرين حقاً على الذهاب إلى هناك؟ إننى كما تعرفين لم أضع قدماى هناك أبداً، وحين تحدثت مع زوجى رجانى أن نأخذ حذرنا، فهذا الحى فى نظره، مورد للتهلكة، واللاجئون الأفغان الذين يزدحمون فيه قد يثيرون الشفقة، لكنهم لا يفكون عن التقاتل فيما بينهم، عن مشاحناتهم القبلية الأبدية، وهم كذلك يسرقون كما قال لى، فانتبهى لحقيبتك!

لكنى يا مهناز، أمضى إلى حيث يقودنى فضولى، فأنا أريد أن أعرف.. أن أصغى لهؤلاء الأفغان الذين فروا من بلادهم وقد أنهكتهم تلك الحروب التى لا تنتهى أبداً، ثم إن من حسن حظى أنك تصحبيننى يامهناز، فأنت تستطيعين أن تترجمى أقوالهم، فأغلبهم يتحدثون الفارسية مثلك.

إيران.. أكثر بلدان العالم كرماً

منذ عام ١٩٧٩، حين بدأت الحرب ضد الغزاة السوفييت، واللاجئون الأفغان لم يكفوا أبداً عن التدفق إلى إيران، موجات فى إثر موجات. وكثيرون أعادوا صنع حياتهم، وآلاف الأطفال قد ولدوا، وعلى خلاف أولئك المتباكين الذين أعرفهم لدينا، والذين يقولون دائماً إن القارب قد غص بمن فيه، بدت إيران على الدوام أخوية بصورة غير عادية. واليوم، فى عام ١٩٩٨ لم يعد بوسع البلاد، واقتصادها يهتز بشدة أن تظل على هذا السخاء، وهذا الخندق الواسع والعميق الذى حفر على طول حدودها مع أفغانستان، والذى يرمى رسمياً إلى منع تهريب المخدرات ـ فالمخدرات مشكلة لعينة بالنسبة للشباب الإيرانى كما هى بالنسبة لشبابنا ـ قد جاء (على الهوى) لكى يقطع الطريق بالمثل على المهاجرين الأفغان غير الشرعيين. وقد اعتبرت المفوضية العامة لشئون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، أن إيران حين استقبلت فى التسعينيات ما يصل إلى ٤,٥ مليون لاجئ، من الأفغان والعراقيين معاً، وهو رقم قياسى عالمى مطلق، فإن هذا البلد الذى لا يتغنى أحد بأفضاله كان «أكثر بلدان العالم كرماً وسخاء».

وما ترين يا مهناز فإن ما أوده فى المقام الأول هو أن أتحدث إلى آخر من جاءوا، أولئك الذين طردهم الطالبان من البلاد.

فالطالبان، الذين غسل أمخاخهم الباكستانيون ودربوهم، وهؤلاء بدورهم

يوجههم الأمريكيون عن بعد، يمارسون إسلاماً سنياً، جهلاء لكنهم مزودون بالأسلحة الحديثة (ولعلها هبة من الله).. ويسيطرون على ثلثى أفغانستان. وبالمقارنة بهم لا يعدو آيات الله في إيران أن يكونوا أولاداً طيبين متزمتين قليلاً ولا أكثر. وتتردد عن الطالبان أقاصيص تتجاوز الخيال حتى لأود أن أسمعها بنفسي من أفواه هؤلاء المجانين.

واقتنعت مهناز بحجتي - أولعلها صمتت أدباً؟ - فقررت أن توقف إحدى سيارات الأجرة، فلنتوكل على الله ونركب إلى جولشارى، حي الأفغان، البعيد للغاية عن أطراف المدينة.

جولشارى..
ملجأ آلاف الأفغان

عبرنا طويلاً طرقات «مشهد»، الغارقة في سبات الجمعة، يوم العطلة، ثم طرف سهل من أراضي سديمية بلون ضارب إلى البني، تزينه هنا وهناك ستارة خضراء من أشجار الحور، وأخيراً بدت جولشارى، التي تشبه أى مكان آخر، بيوت متفرقة هنا وهناك، وسوق ككل الأسواق، تلتمع فيه طماطم ككل طماطم، والجموع تقطع كآبة الشوارع الإيرانية، وتتجول فيه عمائم وقبعات وصديريات وقمصان واسعة فوق سراويل فضفاضة، أى أجناس متنوعة! لكل منها أنفه، الطويلة أو الفطساء، وعيونه المستديرة أو المستطيلة، ولحيته، الكثة أو الصينية، التي تتألف من شعرات ثلاث متهدلة، وأعداد الشادور الأسود قليلة بين النساء، لكن هذه الألوان التي قد تسر العين، ليست سوى شرك، فالبؤس واضح جلي هنا، يسم الوجوه المحبطة، الخالية من التعبير أحياناً، والتي يرتسم فيها التحدى أحياناً أخرى - ماذا تصنع هنا هذه المرأة الطيبة؟ ولماذا توجه نحونا عدستها؟ وأى متاعب ستجرنا إليها بدورها؟ ألا تعرف أننا مقبولون بالكاد هنا؟

وخاطبت مهناز إحدى المارات، عجوز إيراني وشمت ذقنها بنقاط زرقاء، أشارت

لنا بأن نتبعها، وأخذت تلوح بيدها ونحن نسير :

ـ سأقودكما، إن لدى جارة وصلت لتوها، مسكينة، لقد قتل الطالبان كل عائلتها (وأشارت العجوز بيدها محاكية الذبح)، وهذا ما قالته لي هي بنفسها.

ولكن أمام الخوف تتبخر حاسة الضيافة المقدسة في الشرق، فقد رفضت الوافدة الجديدة أن تفتح لي الباب، واسترقت النظر من فوق الحواجز المصنوعة من ألواح الخشب والكرتون التي تحيط بفناء من الطين، ولم أر شيئاً، سوى حملين أسيرين يتأوهان في سرير من النحاس مقلوب رأساً على عقب.

وازدادت كثافة الحشد الذى أثرنا فضوله حتى لنحتاج إلى كاسحة جليد كي تشق لنا طريقاً، لكن هذا التدافع لم يمنع مهناز من متابعة بحثها، سائلة هذا ثم ذاك... عبثاً.. فالنظرات مخاتلة، والردود مضغمة، ومن الواضح أن اللاجئين الأفغان في جمهورية إيران الإسلامية يرفضون الحديث.

الطالبان؟

لا شيء يربطهم بالإسلام!

ثم مفاجأة، أشار إلينا (ملا) شاب بيده، ثم حاول أن يقودنا خفية إلى «حيث نستطيع أن نتحدث في هدوء». وللأسف تابعت جموع من النظارة خطانا، حتى البائع الصغير الذى يبيع أحجار اللازورد، أحجار أفغانستان الثمينة، ترك ركنه على الطور وتابع الحركة، وإن لم يمنعه هذا من أن يطبق ذراعه بقوة على علبة الأحذية التي تمثل خزانته ومعرضه... واقتفوا خطانا، وراقبوا حركاتنا، وما إن استطعنا، الملا الشاب ومهناز وأنا، أن نستقر في النهاية على مبعدة، جالسين في جسارة على الطوار نفسه في حارة متاخمة، بين بعر الماعز وآثار البصاق، حتى كان جدار بشرى يتضخم أمامنا، مشكلاً على مستوى رءوسنا سداً لا يخترق من الصنادل البلاستيكية والأحذية الرثة الشبيهة بحذاء شارلي شابلن.

وبحث رجلنا عن وضع مريح، وركن ظهره إلى الحائط وقد طوى ساقيه ثم اندفع يتحدث وهو يعدل عمامته البيضاء:

- لا أستطيع أن أذكر لكم اسمي. من أين جئت؟ من مقاطعة أوروزغان بجنوب أفغانستان. كم يبلغ عمري؟ ثلاثون عاماً. وبالطبع لا تصوير، أليس كذلك؟

ومن المؤسف أن صديقنا الملا الشاب كان رائعاً بلحيته المشوبة بحمرة خفيفة تكاد تكون شقراء، وعينيه الخضراوين المدهشتين، ونعومة صوته، ورقة ابتسامته، المضيئة والمنكسرة في آن واحد.

وإذن؟ ماذا يحدث هناك؟

- هناك؟ أمر بشع.. الحرب. ثم الحرب، قولي لهم، قولي للعالم إن ما يفعله الطالبان ليس له صلة بالإسلام. وآخر حماقاتهم، لقد حظر هؤلاء المجانين الاحتفاظ بطيور الكنارى في أقفاص، ربما لأن تغريدها يذكرك بـ... بـ...

... بالحب، وماذا عن المرأة في هذا كله؟

- إنها تعامل أسوأ من الحيوان، فما من مدارس للبنات، أو عمل للنساء، وإنما يتخفين جميعاً كلية تحت الشادور، ولا تستطيع المرأة أن تخرج من بيتها دون أن يصحبها ذكر من الأسرة، حتى لو كان صبياً صغيراً، فإذا عرفتم أن العمل يمثل بالنسبة للآلاف من أرامل الحرب مصدر العيش الوحيد لهن ولأطفالهن! والمواسير محطمة، ولم يعد هناك ماء جار. وتبقى الحمامات حيث مازال بوسع المرأة أن تغتسل بالماء الساخن، ولكن حتى هذه الحمامات العمومية التقليدية القديمة، بقيت محظورة عليهن. وتصاب الكثيرات بالأمراض لنقص الرعاية، ونقص الوقاية الصحية، لكنهن، حتى لو كن نصف أموات، لا يسمح لهن بدخول المستشفيات! فالطالبان يزعمون أن الدين يحظر أن يتقاسم الرجال والنساء نفس المستشفى حتى لو كانوا منفصلين و...

وبقيت عبارة الملا الشاب الجالس أمامنا معلقة في الهواء، لكن نظرة ألقيتها من فوق كتفي كانت كافية لتوضيح الأمر، فقد كان كل شيء يهتز حولنا، والفضوليون يتحركون وقد استولت عليهم فجأة حمى غريبة، ثم سار كل شيء بسرعة شديدة، وساد الصمت بين الحشد الذى أخذ يتباعد بحذر، فاتحاً الطريق

أمام رجلين فى الزى الرسمى، طلبا منا بأدب أن نتبعهما.

مقبوضاً علينا

أخذتنا عربة عادية غير بعيد، إلى مركز للشرطة يحيطه جدار مرتفع، يخترقه باب صغير عبرناه تحت حراسة دقيقة.. فناء واسع، غبار وحراس يتسكعون هنا وهناك، ومدافعهم الرشاشة فوق أكتافهم، وعند عتبة المبنى يلوح فى نهاية الممر سلم أسمنتى لا يبشر بخير فى نهاية الممر. وتحت الدرجات الأولى كوة تحيطها القضبان، وبوابتها يغلقها قفل كبير.

ماذا عن التحقيق إذن؟ «عند القوميسير الذى سيستقبلكم بين لحظة وأخرى». والباب المفتوح على مصراعيه يكشف عن مكتب متوسط الحجم، تغلقه نوافذ ذات قضبان تغطيها شبكة رقيقة ـ لمكافحة البعوض ـ ومائدة تشغل الجانب الأكبر من المساحة، فوقها طبقات من البلاستيك الرث... رن... رن، جرس الهاتف يدق، بل أنه لا يكف عن الدق، والحمد لله أنه يعمل.

وبهيئة هادئة قدر الإمكان جلست أنا ومهناز ننتظر دورنا فى فرجة الباب.. ورجال شرطة يروحون ويجيئون، يدخلون ويخرجون، وكلهم يرتدى نفس القميص الأخضر الفاتح، وبالطبع اللحية الجرداء وقد يبدو وصفى للذكور رتيباً للقارئ، يتكرر طيلة هذا الكتاب، ولكن أهو خطئى إذا كان ترك الشعر على سجيته يمثل جزءاً من العرف القومى منذ الثورة الإسلامية؟

وأخيراً.. حركة ما.

ـ اجلسا..

وبسرعة تنزلق الحقيبة التى تحوى أجهزة التصوير تحت مقعدنا، حقيبة نسائية للغاية، خفيفة تماماً، بريئة المظهر، بقماشها القطنى الوبرى المطرز بأشكال

الزهور. من حسن الحظ أنني لم أجد بنفسي أبداً القدرة على أن أحمل حقيبة الكاميرا التقليدية - التي تمثل جزءاً من عدة المصور!

ساعة؟
أسبوع؟ شهور؟

ليس بغيضاً هذا القوميسير، عملاق ذو بشرة نحاسية، وعينين ذهبيتين، يحتسي كوب الشاي، وأصبعه الصغير مرفوع كأنه ماركيز، أبوسعي أن أحتسي بدوري قطرة؟ أمر من الرئيس، والمرءوس يطيعه برقة، مبتعداً ليقوم بتسخين الماء في غلاية ضخمة من المعدن الأصفر، ويعود مقدماً لي بعض السكر، وفي وسطه ترن عدة أزواج من (الكلابشات).

- أوراقكما!

ومد القوميسير يده نحونا.. وانزلق جواز سفري وبطاقة هوية مهناز نحوه عبر المائدة.

صمت... إنه يقرأ، وحدقنا بأنفاس مقطوعة في يديه وهما تقلبان الصفحات واحدة بعد الأخرى. وانتهى الفحص، ووُضع المفتاحان السحريان عند طرف المائدة الآخر، بعيداً عن متناول أيدينا.. إلى متى؟ ساعة؟ أسبوع؟ شهر؟ شهور؟ وترجمت مهناز قدر ما تستطيع دفاعي، الدفاع البائس لطائر مذعور.

- انظر ياسيدي القوميسير، لقد رأيت جوازي! ثلاث تأشيرات من القنصلية الإيرانية في جنيف عام١٩٩٧! ثلاث تأشيرات في هذا العام وحده؟ أليس هذا دليلاً على ثقة سلطاتكم فيّ؟

- هذا كله حسن يا سيدتي، ولكن أين بطاقتك الصحفية الإيرانية؟ أين بطاقتك الصادرة عن وزارة الإرشاد الإسلامي؟

ولم تكن لدى هذه البطاقة فلما لم تكن القنصلية قد تلقت حتى ساعة مغادرتى موافقة طهران على منحى تأشيرة صحفية، فقد انتهت بأن ختمت جوازى بتأشيرة سياحية بسيطة.. كان هذا مجاملة من جانبها، وهاهو يستدير الآن ضدى، بل إن كل شيء يستدير ضدى اليوم.. ألسنا يوم الجمعة.. الأحد الإسلامى؟ والمكاتب مغلقة، وكذلك سفارتى التى تقع بعيداً عن هنا.. فى العاصمة.

وبدأ الانتظار.. والتليفون يرن، ويرن من جديد، والصيحات ترتفع، والحديث.. عمن يتحدثون؟ عنا بالطبع، وحاولت مهناز أن تعطى معنى لهذه النتف المتناثرة. وكلما زاد اللغز زاد القلق، طيلة حياتها لم تحتك أبداً بالأمن.. لكنها تعرف الأمن.. ومن الذى لا يعرفه، فإيران بلد لا يقشعر جلدك فيه بسبب البرد فقط.

انظر إليهم يعبرون حياتى للحظة

والانتظار يطول.. فبنا أو بدوننا يواصل مركز الشرطة حياته، وكثير من العائلات الأفغانية التى يصحبها أربابها، وتنبعث منها نفس رائحة الإنهاك الغامضة تمر أمام مقعدينا دون أن ترانا، ونظرت إليهم.. أولئك الذين يعبرون لحظة بحياتى كما أعبر بحياتهم، كنت أشعر بقلقهم، فهم الذين وصلوا لتوهم ينبغى أن يقننوا وضعهم، وأن يسجلوا أسماءهم فى سجل اللاجئين الضخم، قوائم لا تنتهى أبداً. «الاسم؟»، «تاريخ الميلاد؟». وهنا كان على رجل الشرطة أن يقدر بنفسه لأن الرجل لا يعرف سنه: «حسناً.. لنقل.. ثلاثين عاماً.. موافق؟» ويهز الأفغانى رأسه، ولأنه أمى فى أغلب الأحوال يضع توقيعاً غامضاً فى أسفل الصفحة.

هل كل اللاجئين الأفغان من الشيعة؟

أعرف.. أعرف أنى حتى فى هذه الأماكن الخطرة لا أستطيع أن أمسك لسانى.

وترجمت مهناز دون حماس، ومط القومیسیر الجالس عند طرف المائدة شفتيه امتعاضاً - ماذا تريد مني إذن هذه الصحفية؟ غير أنه تنازل وأجابني بطرف لسانه أن نعم.. إن الغالبية العظمى من الأفغان الذين يأتون إلى جولشارى هم من الشيعة حقاً، أما عن عدد اللاجئين فهو لا يعرفه.

ويستطرد قائلاً في استياء «ودعيني أقول لك أنك حين تحدثت منذ قليل لا مع إيرانيين وإنما مع أجانب فقد خرقت القواعد مرة أخرى».

ونستطيع أن نفهم على أى حال أن سلطات طهران تضع اللاجئين الأفغان تحت رقابة صارمة، فمن يعرف ما إذا كان بعض أنصار طالبان أو غيرهم من المحرضين لم يستغلوا الفرصة ليندسوا وسط هذه الحشود الخارجة؟ وخاصة وأن الفوارق ضئيلة حيث يتحدث الجميع اللغة نفسها، ويمارسون العقيدة نفسها، وأن هذه العقيدة تتخطى الرايات القومية، وأنه وفقاً للتقاليد فإن طلبة الفقه يحجون من مدرسة دينية إلى أخرى، متنقلين من بلد إلى آخر.

هل أستطيع أن أتصل تليفونيا؟

وفي ضيق سحبت مهناز مقعدها إلى جوار مقعدى، وهمست لى أن أصمت:

- كفى! اتركى قلمك، وضعى مفكرتك فى حقيبتك!

والحق أنه لم يكن حولنا سوى الذباب، وأن التوتر كان يزداد، والمكالمات التليفونية الغامضة تتقاطع، أفلم يبق لدينا حقاً ما نفعله سوى أن نبقى هنا.. جالستين على مقعدينا حتى.. حتى متى؟ حتى نتتهى منسيتان فى قلب... زنزانة؟ إن مهناز التى ظلت بشجاعة حتى الآن ترفع روحى المعنوية، ساخرة من مغامرتنا..

مجرد حادثة عابرة كما تقول... مهناز هذه لم تعد تبتسم.

- هل أستطيع أن أتصل تليفونيا؟ ألقتها كما يلقون زجاجة في البحر. نعم تستطيع.. ليس القوميسير بهذا السوء! وبحمد الله أياً كان اسمه كانت مهناز تحتفظ بكارنيه عناوينها في حقيبتها، وبحثت، بحثت بعصبية عن رقم التليفون الخاص لناصر وايز تياسي:

- على أي حال فإن رئيسي من أقوى الشخصيات في مشهد، ولابد أن يستطيع إخراجنا من هنا!

ترن.. ترن.. ترن. من سوء الحظ أن رجلنا ليس موجوداً، إنه يصلي في المسجد ككل أيام الجمعة، لكن زوجته وعدت بأنها ستحاول الاتصال به على رقم تليفونه المحمول.

وبعد ربع ساعة اتصل أحد مساعديه بمركز الشرطة.

أياً كنت يا من تدخلت لصالحي.. إني لا أعرفك وربما لن ألقاك أبداً.. إني أدين لك، على خلاف من كانوا أسوأ حظاً مني، بخروجي في ذلك اليوم، مفلتة بالكاد من براثن الأمن، فمملكة الأمن مملكة خطرة، تديرها (هيرارشيات) غامضة متغطرسة، غارقة في اللامعقول، فماذا كان بوسعي أن أفعل.. أنا المعزولة.. التي حتى لا تتحدث الفارسية؟

في مقر الأمن العام

لكننا لم نصل بعد إلى ذلك.

أبواب سيارة تصفق أمام القوميسارية، ويبرز منها رجال يرتدون الزي المدني، ويعبرون الفناء بخطوات واسعة، إنهم يريدوننا، يبحثون عنا.. لا لإطلاق سراحنا للأسف. واستولى أحد مرافقينا الجدد على أوراقنا الموضوعة على المائدة، ودعانا إلى جمع أشيائنا بسرعة ومتابعته.. وداعاً ياجولشاري، بمركز شرطتك البسيط، وجلبتك وغلايتك وأكواب شايك، بجانبك الطيب: «حيثما تتجهان الآن ياسيداتي فإن الأمر مختلف، إنه أكثر جدية».

منذ بضع ساعات فحسب قطعت أنا ومهناز الطريق نفسه في الاتجاه المعاكس، في لا مبالاة.. ثم انقلب كل شيء أمامنا، وغدا كل شيء أسود، كسيارة الشرطة

السوداء التي تقلنا إلى «حيث الأمر أكثر جدية». وكل شيء يسير بسرعة، المنازل، والحقول، والمشاهد. أي مشاهد؟ إني لا أرى سوى مشهد واحد: مشهدى أنا، الداخلي، وكنت خائفة.

هدوء يوم الجمعة في «مشهد».. والشوارع خالية في قلب المدينة، والمارة نادرون، وأنا ومهناز «نتبع الدليل».. خطوتان أو ثلاث على الطوار، ثم ها هي بوابة المقر العام للأمن يحرسها جندي شاب، صبي عصبي، يوجه لصدورنا فوهة مدفعه وأصبعه على الزناد.

فناء أول.. وأنا أقول أول لكثرة الأفنية والأفنية الخلفية في هذا التيه من الجدران والأبواب الموصدة، وعدد من الحراس المتعطلين المدججين بالسلاح يصطفون في استرخاء على دكة خشبية، ويسلون أنفسهم بالنظر إلينا ونحن نمر.. من هاتان المرأتان؟ انظر إلى أصغرهما حجماً، تلك التي ترتدي الخمار معكوساً، من المؤكد أنها ليست من بلدنا! والمرأة المذكورة كان قلبها قد سقط في قدميها، لكم هو غائم هذا الإحساس بأنك تعيش شيئاً غير واقعي وهم يقودونك أماماً نحو باب من الحديد في الطرف الآخر من الفناء، هذا الباب الذي سيغلق خلفنا بعد بضع ثوان... بنج! كلاك! الباب.. ثم القفل.

ثم فناء آخر، في نهايته مبنى صغير تحيطه جدران عالية. ودخله أحد حراسنا بخطى سريعة، أما نحن فصدرت لنا الأوامر بالانتظار في الخارج، حيث أجبرتنا لسعة شمس الظهيرة على الاحتماء بظل الحائط الضيق.

مكان يرزح تحت الصمت

الانتظار.. الانتظار دوماً.

أخيراً وصل رجل الأمن الذي تسلمنا من رجال الشرطة، ورأيت يديه تقبضان على أوراق هويتنا.. ماذا بوسعنا أن نفعل إلا أن نقتفي خطى هذا الرجل النحيف

ذى القميص غير النظيف، والسروال والجاكيت الجعدين كوجهه الذى تغزوه لحية شعثاء. ومضينا معاً بطول الممرات الطويلة. ألأن اليوم هو يوم الجمعة؟ لا صوت سوى وقع خطانا، إن المقر العام للأمن مكان مغلق يرزح تحت الصمت، ولا يتردد فيه رنين تليفونات ولا صوت آلة كاتبة، ولا أدنى صوت بشرى.

وهناك.. على اليمين فى نهاية الممر.. يوجد باب.. الباب الخلفى الذى أودعنا وراءه، حيث كل شىء يبدو كالسينما: غرفة خالية تماماً ذات جدران قذرة، وناقذة بقضبان، ومصباح مغلف بأوراق صحف قديمة فى السقف يلقى ضوءه على مائدة خالية، يحيطها من جانب مقعد للمحقق، ومن الجانب الآخر مقعدان رثان أو ثلاثة للمحقق معهم.. للمتهمين.. لنا نحن اليوم، وعلى مدى الذراع، وإن لم يكن فى متناول اليد، يرقد أمامى جواز سفرى السويسرى، يمثل لونه الأحمر بقعة فى عبرة المائدة الرمادية.

أثمة صوت مريب؟ ثلاث مرات يندفع محققنا كزنبرك نحو النافذة ويلصق عينيه بصدع صغير من الورق. ثم يعود هذا النحيف المتوتر دوماً إلى الجلوس، ويتناول قلمه بعصبية، ويستمر فى أخذ أقوالنا. كلاك! صوت الباب عند نهاية كل دورة، ويغادر رجلنا الغرفة مسرعاً نحو الطرف الآخر من الممر.. حيث يوجد رؤساؤه.. حيث يتآمرون؟ أيستريبون - دون أن يقولوا أبداً - فى أن أكون جاسوسة عميلة.. ولكن عميلة من بحق السماء؟

ولما كان الأمن لا يفيض بالخيرات فإن أحداً لم يقدم لنا كوباً من الشاى، ولا حتى كوباً من الماء قد يهدئ قلقنا، الذى كان يتزايد مع مرور الساعات، ها نحن وحدنا، ومهناز صامتة، هاربة فى شادورها وعرقها، نفس هذا العرق الحامض الذى يغمر كثيراً من النساء هنا المجبرات على أن يتصببن عرقاً تحت طيات ملابسهن، أما أنا فأخذت تمر أمام بصرى زيارتى منذ أكثر من عشر سنوات لسجن إيفين السياسى فى طهران: كنت حينئذ فى الجانب الآخر من السور، ومن يدرى ماإذا كانت إحدى هذه الزنازين تنتظرنى اليوم؟

وفجأة بدأ المشهد فى التحرك مع ظهور ممثلين جدد، وظهر موظفون آخرون للرعب آمريننا بأن نتبعهم، الاتجاه... مكتب رئيسهم؛ رجل أقرب إلى البدانة وجدت فيه، وياللغرابة، هيئة تكاد تكون طيبة.

ـ هذا هو التقرير الخاص بكما يا سيدتاى، وقعاه.

وبدأت مهناز، التى أدارت رأسها هذه العجلة تقرأ.. ببطء شديد، وحذر شديد، خشية أن تقع فى فخ نص قد يعتبر اعترافاً.. ولكن اعترافاً بماذا؟ ومضت إلى حد اقتراح بعض التعديل فى العبارات، ونجحت فى ذلك.

وإذن؟ هل نجونا؟ بدا لى الأمر كذلك.

متى نرى الشمس من جديد؟ حالاً طبعاً.. وهاقد انتهى الخوف الرهيب، وأعادوا لنا أوراقنا، وصحبنا الرئيس بنفسه حتى الفناء، بل أخذ يتمتم بعبارة آسف، كليك.. وفتح رتاج الباب الحديدى.

تمتمت مهناز وهى تتقدم نحو باب الخروج ـ من حسن الحظ أننا لم نضرب. والمعجزة: أنه طيلة هذه المغامرة، لم يفتش أحد حقائبنا، وظلت الكاميرا والأفلام بمنجاة.

الفردوسى الخالد

تمتد ضاحية «مشهد» الشمالية نصف حضرية ونصف ريفية، وبعد انحناءة إلى اليمين تمتد الطريق عبر الحقول حتى توس.

واليوم لم يعد اسم توس المجيد ـ الذى كان يشمل منذ قرون مجرة من المدن، تحول جزء منها تماماً إلى غبار ـ سوى اسم قرية كبيرة يحفها جدار عتيق، يتهالك وينهار، قرية بسيطة.. نعم، لكنها ليست أى قرية.. لأنها تضم ضريحاً ومتحفاً ونوافير مياه وبساتين.. تكريماً للفردوسى، الشاعر الملحمى الفارسى الكبير فى القرن العاشر، وأحد أبناء توس.

والشاعر يرقد اليوم تحت الرخام، غير أنه كثيراً ما رقد فوق الخرق، فلأنه لم يمسك بلسانه ولا بقلمه فإن الشاعر الكبير قد أنهى حياته شريداً، بائساً وحيداً، وبعد سنوات طويلة من طرده شعر الملك أخيراً بالندم على فعلته، وأرسل إلى شاعره الكبير قافلة محملة بالهدايا، وللأسف ففي اللحظة التي كانت فيها هذه المنحة المتأخرة تدخل من أحد أبواب المدينة كان جسد الفردوسي يغادرها من باب آخر.. إلى المقبرة.

هل كنت أيها الشاعر الكبير، في سنواتك الحزينة الأخيرة شبيهاً بلاعب (التار) المجعد كأنه ثمرة دين قديمة، أو بهذا الموسيقى الذى يعبث اليوم أمام المتحف المكرس لك بأوتار آلة قديمة؟ أتراه يغنى أشعارك؟

وكيف يمكن لك أن تفلت من أشعار الفردوسي، إن مكبرات صوت معلقة بالأشجار تبثها في كل الرياح وفي كل مكان، ينشدها صوت عميق.. ووحده بائع البطاقات البريدية هو الذى لم يعد يلقى إليها بالاً، وانقطع عن ثقافته موصلاً جهاز الفيديو بأحد أعمدة النور.

إنه يطلق الرصاصا، إنه يقتل، إنه يسحق، إنه يطلق بنادق الليزر فوق الشاشة الصغيرة.. لكم هي جميلة أمريكا!

هناك مقدس..
ومقدس

- لحظة يا سيدتى، ناولينى إياها!

وبإشارة حادة استعاد مدير المتحف من يدى الورقة المكتوبة بإنجليزية ركيكة. والموجهة إلى زوار المتحف الأجانب (غير الموجودين)، ثم أسرع يشطب موقع الجريمة بسائل التصحيح الأبيض. كانت العبارة المقصودة تقول إن الفردوسي، في

آلاف الأبيات التي يضمها «كتاب الملوك» قد صور في براعة فارس في زمانه، بملوكها وملاحمهم، بأمجادهم وأوجه ضعفهم، بدمائهم وزهوهم، دون أن يغفل الروح.. الأدب.. الثقافة التي تغمرهم، حتى لقد أسماه العلماء العرب في ذلك الحين «كتاب الفرس المقدس».

كتاب الفرس المقدس! أي جريمة تجديف في نظر آيات الله اليوم، الذين لا يرون مقدساً سوى القرآن.

تشبثي بالسلم!

لكن اللحظة الراهنة هي التي تملكتني بكل ما يرتعش فيها من حياة.. ترتعش في دقات الطبل التي تصلني من الطرف الآخر من القرية، من واحد من أزقة الشرق الأوسط الأبدية حيث تتواجد البيوت الطينية الخالدة، منخفضة ودون نوافذ، بأسرارها الخلفية التي تنغلق عليها أفنيتها، ولكن أيها؟ أي زقاق؟

ليس بوسعي إلا أن أتبع أذني، وظلي يمتد أمامي في ضياء ما بعد الظهيرة.. موعد احتفالات الزفاف.

ذلك أننا أمام احتفال زائف.

ومكبر صوت معلق في ركن أحد الأسقف، وموصول بجهاز تسجيل، يردد أنغام الرقصات وغناء الرجال. والنسوة الملتفات حتى عيونهن بالشادور الفاتح أو الأزرق أو (البيج)، النقاب الداخلي أو الشعبي، ينظرن في صمت إلى المشهد من بعيد، منذ أمد بعيد وهن ينظرن من بعيد، لا يملكن شيئاً في مصيرهن.

والخروج على القواعد قد يكلفك حياتك، وليس دائماً بالطريقة التي تتصورها. وهكذا استرقت الخطى من الزقاق عبر الباب (موارب) يفضي إلى فناء،

استكشف الوسيلة التي يمكن أن تقودني إلى رؤية جيدة للمشهد : سلم ، سلم مسنود إلى الجدار ويصعد حتى السقف وهو - بالمناسبة - نفس السقف الذي يشغله الرجل المسئول عن البرنامج الموسيقى النسائى .

وفي الفناء تكاكي دجاجات ونساء مسنات ، إنهن يتصرفن كأمهات حقيقيات لي هؤلاء العجائز ! كتلك التي جذبتني من طرف معطفي ، ووقفت وحاولت أن تمسك بخصلة شعرى المتمردة دوماً ، لكى تعيدها إلى المكان الذى ينبغى أن تبقى فيهك كامنة تحت الوشاح .

ويبقى هؤلاء العجائز في الفناء ، يدفئن عظامهن الهرمة ، وقد استندن بظهورهن إلى الجدار ، وعلى أى حال فلابد أنهن قد رأين من الزيجات الكثير والكثير .

أما أنا فلا . . على الأقل في إيران ، ومن هنا كانت رغبتى فى أن أصعد السلم . . سلم ضيق من الخشب ، ملتو ومهتز ومتأرجح . . غير أننى اندفعت مع ذلك ، ومعطفى الطويل يعرقل صعودى ، وآلة التصوير تثقل كتفي ، وعند مستوى السقف وقعت الكارثة ، فقد اهتززت ، واهتز السلم معنى . ودار برأسى أنها النهاية ، وأنى سأنهى حياتى فى مقعد متحرك . النجدة ! وانثنيت بكل جسدى إلى الأمام ، ومددت يدى بحركة يائسة نحو الرجل الواقف أمامي فوق السقف . . لكنه لم يأخذها ، وظل يحملق فيّ دون أدنى حركة : إن دينه يمنعه من أن يلمس يد امرأة . . هوب ، وألقيت له برباط آلة التصوير ! فالتقطها . . . ونجوت !

فى الحمام

وبعد فترة صحبت النسوة حتى الحمامات المحجوزة لهن ، حيث ستغتسل نجمة الليلة وتعطر وتجمل ، باب صغير شبيه بالأبواب الكثيرة التى تطل على الزقاق ، وما من شيء يميز «الحمام» أمام المارة ، وبعد بضعة أمتار ينثنى ممر الدخول الضيق

تسعين درجة، ساداً بإحكام رؤية العتبة المؤدية إلى الداخل.

حمام قروى بسيط بجدران رمادية عارية، وأرضية من الأسمنت، لكم نبعد عن الحمامات الفاخرة ذات القباب المصنوعة من الرخام والموازيكو، جو خانق.. كنت أختنق وأنا أرتدى كل ملابسي، ولكن ماذا أفعل إلا أن أبقى في مكان المدعوات، اللاتى لم تتخل واحدة منهن عن نقابها؟ وفي المساحة الضيقة الخانقة، كان الجنون. إنهن يرقصن ويغنين، يجسرن على الرقص والغناء، ويضحكن - يجسرن على الضحك كالمجنونات، وامرأة جالسة على الأرض تضبط الإيقاع، ضخمة كطبلها.

ثم ثلاث درجات قبل أن تصل إلى المغطس ذاته، الذى يبرز منه وسط ضباب البخار جسد العروس العارى ببشرته الرقيقة التى لم تكد تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها.

بعض الذكريات العابرة من الكوكب المجاور

فنلعد إلى «مشهد»، أمامنا الشمس الغاربة، وخلف ظهورنا تتباعد الجبال التى تفصل إيران عن جمورية تركمانستان السوفييتية السابقة.

ذكريات وذكريات... منذ عام ١٩٩٦.. وتركمانستان القريبة للغاية من إيران، والبعيدة للغاية عنها... كأنها كوكب آخر... بالشوارع السوفييتية الفسيحة لعاصمتها عشق آباد، وهؤلاء الجنود بقبعاتهم والتى مازالت تعولها شارة المنجل والمطرقة، يتولون حراسة مطار يكاد يكون مهجوراً كصحراء

كاراكوم المتوهجة التي تمتد حوله.

لقد اصطبغوا باللينينية عقوداً، وتحضروا، على مضض منهم أحياناً، واستبدلوا بخيامهم المستديرة منازل ذات نمط موحد، وبقي التركمان مع هذا يداعبهم الحنين إلى مواكب الفرسان اللانهائية التي من أجلها سموا برجال الريح، ومن هنا مصنع الخيول هذا كما قدموه لي، حيث تتراقص اليوم سلالة الخيول الأسطورية للفردوس التركماني. كيف يمكن أن أنسى الجواد الذي فاز بكل سباقات العام؟ بجلده الأسود اللامع ومنخاره المرتعشة، شيء ما وحشي، وعلى قضبان صندوقه علقت وريقات صغيرة: قصائد، أبيات وضعها عشاقه، له وحده؛ الجواد الإله.

وليس في تركمانستان حجاب، ولا معطف، وشعري يهفهف في ريح الصحراء، وجسدي لا يقيده شيء، وفي قوس قزح من الألوان الحية تسير النساء بملابسهن الزاهية، وقد عقدن الأوشحة عقدة فنية حول أعناقهن، وشعورهن السوداء تتراقص حتى خصورهن.

وأخذ فلاح ترجماني ذو عينين مشقوقتين، أتامراد، يتمتم مشيراً بذقنه إلى ماوراء الجبال التي ازرقت بالحرارة نحو معقل آيات الله:

ـ أنا مسلم.. نعم.. أما في الجانب الآخر فإنهم مجانين.

وألقى نظرة تفيض حباً على ابنته وقال:

ـ طالما ظللت حياً فإنها لن ترتدي أبداً هذا الشادور اللعين!

انفعالة أبوية، أعقبتها ابتسامة واسعة من الفتاة: باسم ماذا، أنا المتألقة، أدفن نفسي في هذ ا الكفن؟

كلمات رقيقة، ووجبة العشاء أمامنا على قطعة المشمع الموضوعة هي ذاتها على سجادة.. السجاجيد.. إنها مفخرة التركمان، وهم ينسجونها في كل مكان، ويضعونها في كل مكان، وتراها في كل مكان، وقطعة حلوى صلبة

كحجر من كاراكوم وطبق من (اليخنى) غير السميك ورأس ضأن سليمة، تبتسم بكل أسنانها البيضاء... ولكن ماذا يهم.. لقد كانت لحظة جميلة.

نساء من سمرقند

ومازالت فى نفس المنطقة، بذكرى رقيقة تجاههن أيضاً، ماذا صرن بعد سقوط الشيوعية، صديقاتي من سمرقند.. سمرقند شمال تركمانستان بجمهورية أوزبكستان، سمرقند حيث انبعثت (من جديد)، فى كل آسيا الوسطى السوفييتية السابقة، وفرة من المساجد، بعد أن ظلت ممارسة الشعائر شبه محظورة طيلة أكثر من ستين عاماً.

ولكن لماذا هذا السؤال؟ لأنه ما من شيء بسيط، كما كان يقول الآخرون، ولأنه بالنسبة للمرأة كان للشيوعية التى كثر التشنيع عليها مزاياها أحياناً.

كنا فى عام ١٩٨٥، فى الجامعة، لقاء بالصدفة فى كلية الآداب، قسم اللغة الفرنسية، وفلوبير وهوجو يتصدران الجدران. كم كن نضات مرحات متطلعات إلى التعليم والعيش، نيلوفار وصوفيا وإلينا وسفيلتا، فارساتي الأربع ـ فقد كن يعبدن «الفرسان الثلاثة» ـ كانت نيلوفار أوزبكية، وصوفيا يهودية، وإلينا روسية، وسفيلتا أرمنية، لكن أديانهن، الإسلام واليهودية والمسيحية، لم تكن على ما يبدو شاغلهن الأول، فقد كن يفضلن الأدب ـ «حين أقرأ موباسان أبكي، لكم هو رائع»

ـ وككل الفتيات فى سنهن كن يتحدثن بحرية عن حبهن وأحبائهن.

وتتذكر نيلوفار، المسلمة، جدتها التى ولدت قبل الثورة الشيوعية فى قرية مجاورة.

ـ كانوا فقراء.. فقراء.. منزل من الطين بأرض طينية، ولا ضوء، ولا ماء، فعليها

أن تسير حتى القناة.. ستة أطفال وغرفتان معتمتان يتكومون فيهما... وانظرى إليّ الآن، إننى أرتدى بلوزة وجوباً وصندلاً! أما جدتى فكانت ترزح تحت حجاب ثقيل من شعر الخيل يجرح وجهها حين تعرق ـ والجو حار لدينا كما ترين، وحينما زوجوها فقد كانو يبيعونها، وهى لم تر فى حياتها كتاباً اللهم إلا المصحف، وبالطبع فقد كانت أمية.. أما أنا فإننى أدرس، وأمارس الرياضة، وأتمتع بالرعاية الصحية ووسائل الراحة.. وسأتزوج من أريد.

أن تكون يهودياً وأوزبكياً..وفارسياً

ومـاريك.. أين هو الآن فى عـام ١٩٩٨؟ مـاريك رودينوف، فى التـاسـعـة والعشرين.. مصور.. لقيته بعد أيام بالصدفة تحت سماء أوزبكستان نفسها. وبدأنا نحتسى الشاى معاً، ونحن جالسان على إحدى الأرائك، التى تمتلئ بالسجاد والطنافس، واحدة من تلك (التشايكات) المقامة فى ظلال كرم عنب حيث قدم نفسه لى باعتباره يهودياً وأوزبكياً وفارسياً.

لكم هو معقد هذا النسب الثلاثى.

ذات مساء فى سمرقند، فى أحد أفنية مجمع المساجد البديع المسمى ريجويستان، عرض لباليه سوفييتى ككل عروض الباليه السوفييتية، حين بدأ طائر خفى يغرد، أغنية تنبعث فى الليل، من عش قائم فى مكان ما بين الموزايكو، ويا لعجب صديقنا اليهودى الأوزبكى الفارسى.. والذى كان فى تلك الليلة فارسياً فى الأساس.

ـ اصغى له! إنه هو نفسه! الطائر الجميل الذى تصوره منمنماتنا الفارسية القديمة.

والحق أن المفكرين والفنانين والشعراء الذين يلمسون قلب ماريك، اليهودى بفعل الشمس والتاريخ، يحملون جميعاً أسماء فارسية. عمر الخيام وحافظ والفردوسى...

آسيا الوسطى..
القريبة البعيدة

ولكن فلتتوقف الذكريات، ولنعد إلى إيران، وإلى شهر يونيو ١٩٩٧، مستنداً بشدة إلى عصاه كان رجل ذو سمات صينية يظلع على طول ممرات هذا المجمع الحديث الواسع المسمى الحديقة التكنولوجية. ويقع مركز الأبحاث التطبيقية هذا، مفخرة الحكومة الإيرانية، على بعد بضع عشرات من الكيلو مترات عن طهران، وتعد زيارة معامله، ودوره المنخفضة الممتدة على طول البساتين القائمة على أربع زوايا، أو بالأحرى على الأوراق الأربع للزهرة الفارسية، ضرورة لكل صحفى يمر هنا.

كان الأمر كذلك بالنسبة لطاهر مالك، المعوق الذى وصل لتوه من آسيا الوسطى، من مدينة طشقند الجميلة عاصمة جمهورية أوزبكستان، ولما كنت مدعوة مثله لتأمل هذه الأماكن، فقد سرت إلى جواره، ببطء لأنه كان يعرج.

وإذا حكمنا بسحنته المكتئبة التى كان يجرها معه كما يجر ساقه من قسم إلى آخر، والاهتمام الذى يصطنعه بأدب للإيضاحات التى تسهب المترجمة الإيرانية فى تقديمها له بالروسية، فإن هذه الآلات والقوارير والأنابيب وغيرها من الأدوات لم تكن تثير مشاعره أبداً.

ثم هاهو يتوقف، ويدور حول عصاه، وبعد أن يفتش فى جيوبه يدس بطاقة زيارته بيده فى يدى، إنه لا يعرف كلمة إنجليزية واحدة، ولكن ماذا يهم؟ فطاهر مالك هو رئيس تحرير «أوزبكستان كونتاكت إنترناشيونال مجازين»، وهو فى

المقام الأول أديب، ومجلته تعكس آراء رابطة جمهورية أوزبكستان للعلاقات الدولية في الحقل الثقافي.

كانت «أوزبكستان كونتاكت» التي أخرج صديقنا عددين أو ثلاثة منها من حقيبته العتيقة تثير حيرتي: لماذا هذه الافتتاحيات المعنونة «أجراس الحرية» في أوزبكستان المسلمة التي لا ترين فيها أبداً أي ناقوس؟ وإن كانت الصفحة الثالثة تنشر رسالة موقعة باسم بيل كلنتون تذكر أن الولايات المتحدة، حيث تدق الأجراس بقوة، «كانت أول من فتح سفارة في طشقند منذ سقوط الشيوعية (...) وأن الشعب الأمريكي لن يتوقف أبداً عن مساندة الشعب الأوزبكي في رغبته في إقامة مجتمع ذي اقتصاد نابض».

حزام الأمن
وحزام العفة

- نعم.. إن الدولة الأمريكية هنا، تنشر صنائعها في آسيا اوسطى.. وليست وحدها.. إنه السباق المجنون من أجل الغاز والنفط.. فجارتنا تركيا تنسج بدورها شباكها في المنطقة، ملوحة بإحدى يديها بورقة المشاعر التي تربط ماضيها بماضي التركمان مثلاً، وباليد الأخرى ورقة المشاريع (البيزنس).

في مكتبه الصغير بشمال طهران، حيث علقت صورة رامبو الشاعر الفرنسي الكبير، يظل مراد صاغافي يلقي نظرته الزرقاء على هذا العالم الفارسي الذي هو عالمه، والذي يعيشه.. كم من مرة استدعته السلطات لكي «يدافع عن نفسه»، وقد اختار الشجاعة راية له: وصحيفته «الحوار» الاجتماعية الثقافية التي توزع أربعة آلاف ومائتي نسخة هي واحدة من هذه المشاعل الصغيرة التي تتوهج بضعة منها في جمهورية إيران الإسلامية.

ويستطرد قائلاً:

ـ وككل الإيرانيين، كانت آسيا الوسطى بالنسبة لي في المقام الأول، هي أقاصيص طفولتي، فتيات سمرقند بضفائرهن السوداء كالليل، وعيونهن الداكنة كالعاطفة، وحريرهن الناعم نعومة بشرتهن. إن قصائد فارسية لا تحصى تحلم بسمرقند.. مدينة الأحلام.

ويتوقف فترة..

ـ لقد سرقت الشيوعية منا جميعاً سنوات طويلة أبعدتنا فيها عن بعضنا بعضاً رغم أن قروناً من التاريخ تربط بيننا.. وما إن سقطت الشيوعية حتى... تصوري جموع الأذرباجيين الذين اندفعوا نحو الحدود لكي يقدموا تحية العام الجديد، تحية النيروز، العام الفارسي الجديد، لأشقائهم في الجنوب الذين يعيشون في إيران! إن الأذرباجيين شيعة مثلنا، وستكون العلاقات معهم، ومع الطاجيك الذين يتحدثون الفارسية، أسهل من الطوائف الأخرى في آسيا الوسطى ممن يعتنقون إسلاماً سنياً، ويتحدثون لغات أخرى.

وما موقف السلطات الإيرانية من هذا كله؟

ـ صحيح أن الرئيس السابق رافسانجاني كان معمماً، لكنه كان كذلك واقعياً، لم يغب الاقتصاد أبداً عن نظره، وحين التحقت إيران في عهده بالسوق المشتركة لبلدان آسيا الوسطى فقد انضمت إلى جيرانها في الشمال في الساحة الاقتصادية. أما الجانب السياسي فأقل مثالية رغم أن هذه الجمهوريات الشيوعية السابقة هي في نهاية الأمر حزام أمننا الجغرافي في مواجهة روسيا بأطماعها.. ذلك أن هناك حزام أمن... وحزام عفة، أفلا يتهدد حزام العفة هذا الذي فرضته إيران على نفسها بأن يتفجر ذات يوم؟

ثماني سنوات منذ (وفاته)

٤ يونيو ١٩٩٧... ليس ثمة مجال للملل أبداً في طهران في هذه الأيام، على الأقل في الساحة الدينية ـ السياسية أو السياسية ـ الدينية، وهو نفس الشيء، فما

كادت ملصقات المرشحين في الانتخابات الرئاسية ـ ومن بينها صورة الرئيس المنتخب محمد خاتمي، سحنة مثقف حقيقي، شاحب هزيل يرتدى نظارات ـ تتآكل على جدران المدينة حتى حلت محلها آلاف اللافتات العملاقة والملصقات والملصقات الذاتية، تبكى جميعاً الخمينى، الذى لحق بربه فى هذا اليوم نفسه منذ ثماني سنوات .

وفي كل مكان في المدينة ترفرف رايات سوداء . . وأوصدت دور السينما . . وعلى نغمات حزينة تنبعث من آلات التسجيل بلا كلل، مراثي الراحل، ورأيت مذيعة التليفزيون وقد ازدادت الحلقات حول عينها سواداً، إلى جانب رداء الحداد الذى ترتديه كل يوم.

كنت قد هبطت فى طهران فى الليل ووجدت نفسى أتجه دون تمهيد فى الصباح الباكر، فى جو حار كالرصاص، نحو عالم آخر، فى الطريق إلى بيشتى ـ زهرة، على بعد نحو ثلاثين كيلو متراً عن العاصمة، وفي بيتشي ـ زهرة تمتد صفوف من الميادين ذات البواكى، وتنتصب مساجد تناطح مآذنها السماء، فى بيتشى ـ زهرة يرقد الخمينى، تحت ذهب ضريحه، فى بيتشى ـ زهرة تمتد إلى ما لا نهاية أضرحة شهداء الثورة وشهداء الحرب المقدسة التى «فرضها» العراق، على جمهورية إيران الإسلامية .

واليوم فى بيتشى ـ زهرة يعيش ويصرخ ويبكى ويجلد نفسه هذا الإسلام الشيعى الذى يكاد يعجز عن فهمه من لم يولد فيه .

نرحل فى سبيل الله

وقفة صغيرة لنا فى الطريق، فى مسجد متواضع للغاية، فى الضاحية الجنوبية، والفقيرة، للعاصمة، ولكن أين ذهبت إذن تلك الكراهية للغرب التى طالما تصايحوا عنها لدينا ؟ ألم تصب الحماسة الداعية إلى الثأر سوى بضعة عقول

متهورة؟ أم تراه ببساطة الطابع المقدس للذكرى السنوية لوفاة الإمام هو الذى يدفع الإيرانيين اليوم إلى الوداعة؟ وتلقائياً تقدم لنا، نحن خدم الإمبريالية، كوب ليموناده الصداقة.. وترحيباً بنا أخذ صبي لا يزيد طوله عن ثلاثة أشبار يكنس بحماس بلاط المسجد، حيث علق على الجدران بهذه المناسبة معرض صغير، صور الخميني، وحياته، ووفاته وقداسته، وأخذ مكبر صوت مقطوع الأنفاس يصر أناشيد بألحان عسكرية هي في الواقع مراث لا تنتهي في ذكرى الراحل.

وقبل خمسة كيلو مترات من بيتشى ـ زهرة كان المرور متوقفاً، فقد هرج الجميع من كل إيران، من جبال الشمال والسهول والصحارى، من المدن والقرى، وكثير منهم في حافلات محاطة بالملالى، رحلة مجانية تتكفل بكل مصاريفها المؤسسات الدينية الغنية، وهنا تبدو قوة الثورة الإسلامية، التى عرفت كيف تشغل الناس العاديين، وتوفر لهم وهم المشاركة في صنع مصيرهم، وتدفعهم إلى النزول إلى الشارع، وتخرج من المنازل نساء لم يجتزن أبداً عتباتها. هناك تظاهرات في الشارع يصرخ فيها الناس ضد أمريكا، ملوحين بقبضاتهم، أو ضد إسرائيل مهددين بأنهم ذات يوم سيخلصون القدس من الاحتلال الصهيوني، وهناك مزارات الحج.. بعضها قريب وبعضها بعيد مثل ضريح السيدة زينب المتوهج في سوريا قرب دمشق، وهناك الاحتفالات السنوية بذكرى ولى ما، كاحتفال اليوم بذكرى الخميني القديس.

وزين رجال شرطة المرور أزياءهم السوداء بأشرطة خضراء عريضة كتب عليها بحروف بيضاء كبيرة تغطي صدورهم «المجد للحسين! المجد للخميني!» وانضموا إلى الإيرانيين الذين يتدفقون نحو المزارات المقدسة، شيعة من أذربيجان، ومن تركمانستان، ومن أفغانستان، ومن باكستان، ومن الهند وغيرها. وفي هذا الطريق الذى يسير فيه الجميع في سبيل الله تختلط وتمتزج الحافلات وسيارات النقل الكبيرة والصغيرة والمقطورات والسيارات الخاصة والموتوسيكلات التى يستقل كل منها أربعة أشخاص وسيارات الأجرة التى تغص بعشرة ركاب، وكلها تمتلىء بلوحات من الأشعار والصور المقدسة.

والإنهاك يغلب مجاذيب الرب الذين جاءوا على أقدامهم يتلوون بين الصفائح الحارقة، لكنهم مع ذلك يلوحون بإحدى أيديهم برايات الإسلام الخضراء،

ويحملون في أيديهم الأخرى (ترامس) المياه الباردة.

وعند أحد الممرات الجانبية يرقد جسد كاميون مغطى بنسيج أسود كأنه نعش. ودوارق ضخمة من عصير البرتقال تقطع ببقع من الضياء المنصات التى نصبت في كل مكان تقريباً على حافة الطرق، وحولها جميعاً تتدافع وتتراص جموع حاشدة ترتدى السواد، فالتقاليد تقضى اليوم بأن تكون المشروبات والأطعمة مجانية، والله هو الذى يدبرها.. وكثيرون في حاجة إليه إذ يتدهور الاقتصاد الإيرانى بسرعة.

ما من غربى
فى الأفق

درجة الحرارة خمسة وأربعون في الشمس... والغبار... والسهل أبيض من الحر، والجبال لا تكاد ترتسم وقد غمرها الضوء.. وأخيراً تلوح بيتشي ـ زهرة، المشهد غائم.. مرتعش، ولا يبدو واضحاً ومشرقاً سوى القباب المغطاة بذهب رقيق. وعند الظهيرة كان الذهب وحده هو الذى ينافس الشمس في توهجه.

وأوقفنا عربتنا فى بقعة جرداء، ثم سرنا على أقدامنا على أرض صلبة كالحجر بفعل الأقدام التى وطأتها، ها نحن فى الأماكن المقدسة، نستنشق الهواء يمتلىء ورعاً، وحولنا ينساب على الدوام تيار الحجيج الهائل ـ وتقول الصحف إنهم يتراوحون بين مليون ومليونين ـ كنت أعتقد أن السواد قاصر على النساء، لكن كثيراً من الرجال يرتدونه هنا رمزاً للحداد. ويتوقف الكثيرون طويلاً أمام اللوحات الجدارية الضخمة المعلقة فى كل مكان تقريباً.. أمر طبيعى ومفهوم، فالصور الشيعية ساحرة خلابة، إنها واقعية تماماً ومسرحية للغاية فى آن واحد.

والأطفال المنهكون الذين اقتيدوا إلى هنا ـ وأحياناً من آلاف الكيلومترات ـ يجرون أقدامهم خلف أمهاتهم، متشبثين بكل قوة أيديهم الصغيرة بشادور أمهم.

وإذا كان كل من هنا يوقرون علياً فإن الحجيج ليسوا جميعاً من نفس الجنس.. على العكس.. ومن هنا كانت هذه العيون السوداء أو البنية أو الذهبية أو الخضراء أو الزرقاء، الواسعة أو الضيقة، المستديرة أو المستطيلة.. ولكن ما من غربى يلوح في الأفق، وحضور هذه الزائرة المصورة التي جاءت من جانب مرآة الدعاية الآخر يجلب لى كثيراً من النظرات.. نظرات طويلة كأنها تصورك، نظرات فضولية لكنها ليست معادية حقاً، بل لقد اقتربت منى عجوز وقدمت لى كهدية ملصقاً للخميني ينحنى فوق فراش طفل مريض، ودعتنى مجموعة من السيدات يجلسن تحت إحدى البواكى بأيديهن وابتساماتهن إلى مقاسمتهن الأرز.

حشود مسالمة للغاية في مظهرها، لكنها عنيفة للغاية.. وهكذا ففى ذلك الصباح، وأمام خطاب آية الله خامنئى، المرشد الروحى الأعلى للجمهورية، ارتفع هذا الهدير المخنوق نحو المنصة، على إيقاع عشرات الآلاف من الأيدى التى تدق الصدور بعنف، ودقات الطبول، وهذه الجباه التى تسيل عرقاً تحيطها عصابات الإيمان الخضراء، إنهم يمثلون الجلد، ولكن حين يستعيد الشيعة ذكرى استشهاد الحسين - كما يفعلون كل يوم - فإن الجلد يكون حينئذ حقيقياً وتسيل الدماء الحر كالرصاص، وبدأت مياه النوافير تتراقص مبللة الحشود التى تتأرجح وتتأرجح، وتتصايح، وتردد، وتردد، وتردد، عاشورا خمينى! عاشورا خمينى، عاشورا خمينى! خمينى الشهيد!... رغم أن الفقيد قد مات بهدوء في فراشه.

أما أنا فلا أحب

الملالى

قال سائق التاكسى الذى استقبلنا عند طرف هذا الحشد المشتعل، ووصل بنا، والحمد لله، فى النهاية منهكين إلى فندقنا فى طهران أنه «إنما جاء إلى بيتشى - زهرة لأن عليه أن يكسب قوته، ولأن الشغل شغل»، لكنه على العكس لم يتحرك

لانتخابات الرئاسة، ولم يصوت، كان يقبض على عجلة القيادة بيد واحدة، ويستدير نحونا وعيناه تغادران الطريق في خطورة، وأخذ يقيسني (موضع ثقة؟ ليست موضع ثقة؟)، ثم أخذ يرسم بيده الخالية حول رأسه ما يشبه كعكة، أو هالة.. أو عمامة وقال:

ـ أنا لا أحب الملالي! فلا فرق بين عمامة وأخرى. وأنا لا أثق في رئيس من الملالي.

الضحك في إيران

عدت إلى غرفتي.. إلى ملاذي.. غرفتي التي أجد فيها في النهاية ذاتي، حيث أذكر أن لي شعراً، وجسداً.. لم أشعر أبداً بالمعنى الصحيح لما يسمونه لغة الجسد قدر ما شعرت بها هنا حيث هي محظورة.. فما أن أغادر عتبة حجرتي حتى يسود من جديد بالنسبة لي، في الفندق كما في غيره من الأماكن، قانون الحجاب والمعطف الطويل الذي يكفنك.

الطابق العاشر.. ومن خلف نافذتي تلوح طهران، وفي الأسفل الفندق، وزرقة حوض السباحة المهجور، وشماسيه المغلقة كأنها نوع من الفطر، والغبار يعلو الأرائك المرصوصة أمام الحائط طيلة أوان الجمهورية الإسلامية على ما يبدو، والتي لا تبدو أبداً، حين أنظر إليها من هنا، مرحة بهيجة.

لكنهم يضحكون في إيران، ورجال الفكاهة والكاريكاتير يزدهرون.

ويشبه مسعود صادغيان بوروجيني خالق (الأراجوزات) السياسية التليفزيونية «المصنوعة في طهران»، بأنفه الكبير، ونظارته، وأذنيه الضخمتين وبشرته الوردية حتى لكأنها صنعت من البلاستيك، يشبه العرائس التي يصنعها، اللهم إلا إذا

استثنينا نظرته، الحية، الحساسة، على نقيض ثبات الألياف الزجاجية للعيون الاصنطاعية.

وهى أيضاً نظرة تتسم بقدر خفيف من الريبة، فتصوير الوزراء فى هيئة عرائس ليس عملاً مريحاً، فالأشخاص المعنيون... عفواً.. أقصد الأراجوزات، قد ركنوا ذات يوم على الرف، وحرم الجمهور الإيرانى من ضحكات يزيد من الترحيب بها أنها نادرة، وذلك بالرغم من أنه كان لها (أو ربما لأنه كان لها؟) جمهور واسع جداً، وفى البداية نظمت عروض العرائس مرتين فى الأسبوع، ثم أخذت تقل، لتختفى ذات يوم من الشاشة.

فهل ستشهد عودتها ثانية؟ أفلم يثبت الرئيس الجديد خاتمى أنه رجل يحب الفكاهة؟

رجال وفئران

غير أن كل شيء بدأ بداية طيبة.

- كنت قد قضيت عشر سنوات أصنع العرائس لأفلام الصور المتحركة للأطفال، قصص بريئة عن الفئران، ثم ياللعجب فوجئت فى بداية عام ١٩٩٦ بإدارة القناة الأولى تطلب منا عرائس أكثر التزاماً.

وهكذا انتقل مسعود صادغيان بوروجينى من الفئران إلى الحيوانات السياسية، معيداً تشكيل رءوس عشرات من الشخصيات الإيرانية بإسفنج المطبخ من الماركة السائدة.

- كان عليّ أن أتدبر أمرى بما لدى، من المستحيل أن تعثر فى طهران على المواد الاصطناعية التى كانت ستسهل عملى كثيراً، والقليل الذى نجده منها مستورد

ومرتفع التكلفة جداً، خاصة وأنه كان عليّ أن أدفع الثمن من جيبي، فإذا راقت العرائس لمدير القناة فهذا حسن، أما إذا لم ترق فالغرم عليّ.

ورغم أن فناننا كان مضطراً إلى أن يدبر نفسه بنفسه فقد تمكن من تحقيق قدر من الشبه بالشخصيات الأصلية حتى أن بعض من صورهم، أو أقاربهم، قد أبدوا استياءهم «يشهد الله أنني لم أنجب ابني على هذا النحو» هكذا صاحت أم إحدى الشخصيات الرفيعة. واشتكى أحد الوزراء من العروسة التي تصوره قائلاً إنها أكثر صلعاً مما يجب. لكنه تلقى من المتهم رداً قاطعاً «فلتشكو لله ياسيدي وليس لي».

وإذا تعلق الأمر بوزيرة يا سيد صدغيان؟

ـ حتى لو كانت قبيحة كالقرد فمن المستحيل أن نحولها إلى (أراجوز)، فالدين يحظر السخرية من صورة المرأة.

ويزيد من قيمة الفنان أنه كان عليه أن يرتجل.

ـ لم يكن تحت يدي أي نموذج، ولا حتى أي صورة يمكن أن أستلهمها، وفيما بعد فقط اكتشفت (أرجوزاتكم) السياسية في أوربا، حين منحتني السلطات أخيراً تصريحاً خاصاً يسمح لي بالتقاط البرامج الأجنبية بالقمر الصناعي.

الفكاهة وظيفة لطيلة الوقت

تشغل مكاتب مجلة «جولاغا» الساخرة مبنى أبيض صغيراً في شمال العاصمة، ومنذ قاعة الاستقبال يشعر الزائر بالجو السائد، ودهشت لمرأى إناء فخاري صغير معلق على الحائط، وقد شقت بطنه الصغيرة كأنها حصالة وجاءني الرد:

ـ إنه صندوق الشكاوى.

ولماذا هو صغير هكذا؟

ـ لأنه ليس في إيران محل للشكوى.

ويدين التليفزيون الإيراني بإبداع سيناريوهات وحوار (الأراجوزات) السياسية لخيال فناني «جولاغا».

ويعترف أحد المحررين لي:

ـ تعرضنا لضغط شديد قبل أن نبدأ، فلم يسبق أبداً عرض أي سخرية سياسية على الشاشة الصغيرة، ولما كان التليفزيون مملوكاً لدولتنا الإسلامية المحبوبة فإن هذا يبين لك أين يقع الخط الذي لا ينبغي تجاوزه... وبشرط صريح هو ألا توضع أسماؤنا في المقدمة. وقد انتهينا بإعطائهم نحو خمسين سيناريو أثار تنفيذها، كما تعرفين، ردود فعل شديدة في الدوائر العليا، ومن ناحيتنا في «جولاغا» تشعر بأنه كلما مرت الوقت قلت قدرتنا على أن نوقف... أقلامنا.. ولاحت أمامي اللحظة التي سننتهي فيها بالإنزلاق إلى نقد الحكومة... الحقيقية.

وبالطبع كان محدثي يعني بالحكومة الحقيقية آيات الله المعصومين الذين لا يمسون.

وعندئذ؟

ـ عندئذ قلنا: قف.. خطر.. قف! وقد حاول كتاب السيناريو التليفزيونيون بعدئذ أن يكتبوا قصصاً بأنفسهم، لكنها كانت عديمة القيمة.. كما هو شأن تليفزيوننا على أي حال.. ولنأمل مع قدوم خاتمي أن تهب الروح ثانية، ولو نسمة رقيقة.

إن صناعة الفكاهة وظيفة لطيلة الوقت، وأخيراً يصل صبري مدير جولاغا بعد أن انتظرناه طويلاً لكثرة مشاغله، بنية صغيرة يعلوها شعر أشيب، وقميصه اللازوردي مفصل جيداً، كشاربه الكثيف، إنه يفيض (شقاوة)، ولا يخلو من نفحة أسى.

ـ نعم.. الضحك والمأساة، تلك هي الحياة..

وماذا عنك أنت؟

ـ كنت معلماً، وكنت أتوقع أن أظل هكذا طيلة حياتي، حتى اختاروني لأكتب

عاموداً يومياً ساخراً في أوسع صحف إيران انتشاراً ـ «اطلاعات»، وأعجبهم قلمي، وربما لم تكن اللحظة مناسبة، فقد كنا في عام ١٩٨٤، في قلب حربنا ضد العراق، حيث لم يكن يلوح أن ثمة أدنى مكان للابتسامة، في حين لم تكن الدعاية المعادية في الجانب الآخر من الجبهة تكف عن السخرية بملاتنا، مرددة أنهم لا يستطيعون سوى شيء واحد هو: دفعنا إلى البكاء. والحق أن الإمام الخميني نفسه كان يساند دعاباتي قائلاً «لم يكن الضحك أبداً بمثل هذه الأهمية لنا».

أكثر من مجرد مهرج

إنه أكثر من مهرج. أفلم يكن مدير جولاغا المستشار الثقافي لآية الله خامنئي المرشد الروحي الأعلى لإيران؟ ومستشار الرئيس الحالي خاتمي وقت أن كان هذا مكلفاً بوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي؟ ومكلف هو الكلمة الصحيحة فالحق أن هذه الوزارة كانت عبئاً ثقيلاً لأنها هي التي تقرر تطبيق أيديولوجية النظام بكل جوانبها.

ووقف صبري، ثم أمسك بصورة قائلاً:

ـ انظري! ها هو خاتمي يسلمني جائزة، جائزة لي أنا، ساخر النظام، وماذا كان جزاؤه عن هذا؟ لقد عزل بعد يومين.

كان المحافظون يأخذون عليه عقليته شديدة الانتقاد فأقصوه عن منصبة كوزير للثقافة في عام ١٩٩٢.

ـ وحين أفكر في الأمر فإن الفضل لخاتمي في انبعاث جولاغا. قال لي ذات يوم «كم هو مؤسف أنك بكل هذا الذكاء عاجز عن الإمساك بقلم!». ولم أنس ملاحظته، واقتراحه بأن أرسم الصور الكاريكاتيرية، وفي عام ١٩٩٠ أحييت

صحيفة جولاغا، التي أقيمت في عام ١٩٦٩، وكانت موجودة بالفعل منذ أيام الشاه.

وكم كان حكيماً في هذا البعث، فالحق أنه إذا كان من الممكن فرض جمود فكر وحيد فإن الرسم، من جانبه، مرن، كالحية، ويرى صبرى أن بعض فناني اليوم أكثر حذقاً وموهبة من أيام الشاه، ويختتم حديثه واعظاً قائلاً إنه إذا كانت السياسة تتغير فإن الإنسان خالد بغروره وحماقاته.. ومن هنا يأتي خلود الرسم.

وتصدر جولاغا في ثلاثة أشكال أسبوعية وشهرية وسنوية. وجولاغا السنوية مجلد ضخم؛ وهي وإن كانت مصورة فإنها في النهاية تعطى النص حقوقه إذ تتوجه إلى القارئ الذي يفكر، وتحلل آليات السخرية، مضيفة إلى حصاد العام المنقضى صفحات من التأمل العميق.

الفكاهة ـ أتسمى هذا فناً؟ إن مدير جولاغا. لا يعبأ بما يقوله الناس، خاصة لأن التوزيع ينبىء بأيام مشرقة.. حتى ١٥٠٠٠٠ نسخة لجولاغا الأسبوعية، حين لا تكون هناك ندرة في الورق بالطبع. وهي نتيجة طيبة بالنسبة لبلد فقير...

ـ ... حيث لا تذهب الصحيفة مباشرة إلى سلة المهملات بعد قراءتها كما يحدث في بلدانكم الغنية يا سيدتي، وإنما تعيش حياة أطول، وتقرأ وتعاد قراءتها، متنقلة من يد إلى يد.

ولدى جولاغا عدد كبير من المشتركين خارج إيران.. بين الشتات الإيراني، وإنما كذلك في أوزبكستان وطاجيكستان وأفغانستان وباكستان والهند، وباختصار حيث توجد جماعات ناطقة بالفارسية.

سخرية بلا حدود

ومجلة «كايهام كاريكاتير» أكثر فنية من جولاغا.. إنها متعة حقاً.. يالهؤلاء الإيرانيين! يالرقة الخطوط والخيال والتلميحات.. إن هذا الطفل الذي ولد في عام ١٩٩٢، وتدعمه الحكومة، يشب بقوة، وتوزيع المجلة يتزايد.

سخرية بلا حدود... كما يشير اسمها «كايهام كاريكاتير» الذى يعنى بالفارسية «الكاريكاتير العالمى» - لا تستقبل سوى المواهب المحلية: ويترجم الفهرست بالإنجليزية، ويجرى تبادل الرسوم مع المجلات الأجنبية الشقيقة، وتنظم المباريات والمهرجانات الدولية فى طهران، وكان موضوع مهرجان عام ١٩٩٧ هو البيئة، ورسامو جمهورية إيران الإسلامية معروفون فى كل الاتجاهات!.. وهكذا نال لالى زياكى عام ١٩٩٦ جائزة الكاريكاتير المهيبة التى تمنحها كل عام صحيفة «يومبورى شيبوم» اليابانية.

ارسم لى حملاً

- أتتحدثين الفرنسية يا سيدتى؟ وأنا أيضاً.. هل تعرفين؟ إنى أعشق الرسامين الفرنسيين.. أعشق بلانتو.. وسيمبى الأخلاقى! وفولون لهدوء ألوانه ومشاهده التى كأنها التقطت من طائرة هيلوكبتر!

إنه رجل دافئ ودود، له لحية فنية أكثر منها إسلامية.. إن مسعود شوجاى طبطابى رئيس تحرير كايهام كاريكاتير الشاب هو روح مجلته، وواحد من أفضل رساميها.. وتخصصه؟ الخراف.

خراف ثم خراف، مرسومة بخطوط مرتعشة، خراف فى شراك أوضاع مجنونة بقدر ما هى سريالية، يرجى من القارئ ألا يرى فيها تلميحاً إلى.. (واختر أنت الشخصية).

لكن الصديق شوجاى لا يغفل مع هذا الدجاج!

- إن الصعوبة التى يواجهها رسام الكاريكاتير فى إضفاء الحياة على... كتلة امرأة فى الشادور.. هى التى توقف.. ريشتى.. وهى التى تدفعنى إلى أن أرسم دجاجاً

أدعه يتخذ أوضاعاً.

سينمائية وهامشية

قبل أن تقف أمامي للتصوير، في ضوء شرفتها في شمال طهران، ارتدت ياسمين أولاً معطفاً، ثم جرت تبحث عن وشاح تغطي به رأسها:

ـ صدقيني أنني لست وحدي في ذلك. فهنا لن تقبل إيرانية أبداً أن تصور دون أن يغطيها الحجاب.. هذا هو القانون.. وويل لمن يخرج عنه.

كليك! وفي البداية صورة دون ابتسامة.. واحدة من تلك الصور التي تروق لبعض الإسلاميين الذين لا يعتبرون المرأة التي تعرض علناً ابتسامتها امرأة جادة.. فلنستمر.. كليك! كليك! كليك! وبعد بضعة (كليكات) غدا الأمر أقوى منها، ولم تستطع ياسمين أن تمنع التماع ابتسامة.

ـ إن ما يقتلني، وصدقيني، هو أن يكون عليّ دوماً أن أكبح تلقائيتي.. هو هذه الرقابة الذاتية الدائمة.. وأحياناً ما أضيق بها إلى حد أنني، بعد أن ألقى نظرة سريعة حولي، ينتابني الجنون فأركل بقدمي وأنا أسير كرة صبية يلعبون في الشارع.

أن يكون لك وجهان، واحد لديك وآخر في الخارج.. أليس هذا نصيبنا جميعاً نحن النساء، وأينما كنا؟ وفي جمهورية إيران الإسلامية تبلغ هذه اللعبة الدائمة، لعبة القناع الذي تضعه والذي تنزعه، حداً يكاد يصل إلى الشيزوفرانيا.

ـ وبالطبع كلما ازددت علماً ازددت معاناة.. فالنساء البسيطات لا يطرحن على أنفسهن كثيراً هذه الأسئلة.

وليس هذا كله سهلاً، حين تكونين ـ مثل ياسمين ـ قد تذوقت طويلاً حياة الطائر الحر، حين تكونين قد عشت طفولتك في إنجلترا، ودرست في أوربا وفي أمريكا. إن ياسمين مالك نصر ممثلة ومخرجة وسينمائية في الأربعينيات، تخرجت من كلية السينما في جامعة كاليفورنيا الجنوبية، ولم تعد إلى إيران إلا بعد الثورة، ومازالت اثنتان من شقيقاتها الخمس تعيشان في الولايات المتحدة. إحداهما محامية والثانية سيدة أعمال. أما الثالثة فتمتلك مشروعها الخاص في طهران... سيدات رائعات بنات مالك نصر هؤلاء.

ـ تنتمي أسرتنا إلى شيراز. وكان أبي ضابطاً في جيش الشاه قبل أن يعمل في العقارات. ولما لم يكن له ابن فقد ركز جهوده علينا نحن البنات وربانا بحرية كما لو كنا أولاداً. وإذا كنت قد عدت إلى إيران فذلك جزئياً من أجله، فقد كان مريضاً للغاية، وانتهى بأن قضى نحبه.

كانت ياسمين تتحدث وهي تسير أمامي ببلوفرها، وجوربها الأسود يلتصق بخطواتها الرشيقة كالغزال، والمبنى فاخر، والصالون مضيء وأريكة بيضاء، وقليل من الأثاث، وسجاجيد ملونة، ونار تتراقص في المدفأة، وجهاز الاستريو يطلق موسيقى باخ في هدوء.

ـ أتريدين شاياً؟

عودة إلى المطبخ، وعودة إلى الحديث.

ـ نعم.. إنها شاقة هذه العودة إلى إيران! أذكر في ذلك الحين أن مخرجاً شهيراً.. نعم هو من ذكرت ولكن لا تشيري إلى اسمه.. أذكر إحدى ملاحظاته التي أبداها لي نصف جاد ونصف ساخر. كنا في أصفهان، أثناء مهرجان الأفلام الإيرانية، ونحن نسير على طول ممر محاط بالأشجار،حينما رحت في إحدى تلك

الحركات الفرحة بالحياة التى تنتابنى أحياناً أتقافز لكى ألتقط ورقة شجرة، وفركتها ورحت أتشممها، أترانى أسأت إلى نفسى إذ أضفت إلى هذه الحركة قدراً من التدلل، فقال لى «خذى حذرك يا صغيرتى، فأنت تتصرفين كما تحسين، وتبدين صراحة ما تشعرين به.. فإن هم أزعجوك ذات يوم فلن يكون ذلك بسبب قصة حجاب بسيطة، وإنما لأنك تجاسرت على أن تكونى ذاتك».

أبناء؟..

تكفينى أفلامى

بحكم ماضيها فى الخارج؛ ولأنها تعيش وحدها منذ طلاقها، وهذا أمر نادر، نادر للغاية فى إيران؛ ولأنه ليس لها أبناء وترفض أن يكون لها رغم عنف الضغط الاجتماعى، فإن ياسمين مالك نصر تجسد فى الجمهورية الإسلامية صورة الهاشمية.

ـ أهذا يشقل علىّ؟ نعم ولا، نعم لأنى أشعر أحياناً بالوحدة، وخاصة حين لا أعمل، ولا لأنه فيما يتعلق بالأبناء فإن أفلامى تكفينى، وأشق أمر علىّ هو أن أطوف بمكاتب هؤلاء السادة مطالبة بتمويل فيلم، وأعرف أن أمر كذلك فى كل مكان، وأن على المرأة أن تبذل جهداً مضاعفاً لكى تنجح، لكن الأمر هنا أسوأ، فأنت تصطدمين بأيديولوجية، أن تحاصرى مكاتب المديرين، وكلهم من الرجال، وأن تقتحمى أبوابهم، وتتصلى هاتفياً، وتعيدين الاتصال، وباختصار أن تواصلى الإلحاح فى حين أن من المفروض أن تعيشى بعينين خفيضتين، وقد أغلقت حجابك على حياتك، هذا أمر غير متصور، ويبقى السيناريو الذى قدمتيه هناك، ويعلوه الغبار... لماذا لا تقيم الحكومة مؤسسة لدعم المخرجات؟

ولما كان دعم الحكومة يتناقص يوماً بعد يوم فلا يبقى إلا المنتجون الخاصون.

وتمضى ياسمين فى اعترافاتها:

ـ ليس هذا أفضل دائماً، فأغلبهم يتحدثون بلغة البيزنيس، والبيزنيس هو البيزنيس.. وهذا كل ما هناك... فمن منهم سيكون مستعداً اليوم لأن يستثمر في أسلوب مثل أسلوب كاريوستامي على سبيل المثال؟

كان فيلم عباس كاريوستامي الرائع «مذاق الكريز» الذى فاز بالسعفة الذهبية في مهرجان كان ١٩٩٧ تأملاً في الانتحار والحرية، في الرغبة في الموت وجمال اللحظة، لكنه في الواقع أيضاً فيلم صعب استبطاني، يكاد يخلو من الحركة.

وتسر لي المخرجة

ـ من المفارقات أن سيطرة سلطاتنا على السينما لم تكن لها جوانب سيئة فحسب.. لا عنف، موضوعات إنسانية، والأفلام ممولة من الألف إلى الياء، وكان بوسعنا أن نمارس متعة العمل على مهل، بل حتى أقول إن القيود التي فرضت علينا قد أشعلت بشكل ما خيالنا وأجبرتنا على أن.. نكون أذكياء.

وضحكت ياسمين.. ضحكة ساحرة.. ساحرة مثلها هي.

بصراحة ألا تحسين أحياناً بنوع من المسئولية تجاه أولئك اللاتي لا يتمتعن لا بجمالك، ولا بقوتك ، ولا بمواهبك ولا بحظك؟

ـ بالطبع أشعر بذلك، بل إنني هنا من أجلهن.. هل تعرفين فيينا؟ كنا نسير في الممرات المليئة بأوراق الشجر الميتة عائدين من المسرح، أنا وأحد الممثلين النمساويين، حين تفجأة، والأمطار تسيل من مظلته على مظلتي: «اسمعي! إذا أردت نصيحتي عودي! عودي إلى إيران، عودي إلى وطنك، وليس فقط من أجل صحة والدك وإنما من أجل النساء، ألا تدينين لهن بذلك ولو قليلا؟

وعندئذ؟

ـ وعندئذ رنت هذه الكلمات في ذهني!.. وشعرت بالطبع بقدر من الخوف من العودة إلى إيران، الشرطة.. والمحظورات.. والنقاب، لكنني فكرت في النساء، وخاصة أولئك اللاتي ولدن مع الثورة ولم يعرفن أبداً شيئاً آخر إلا هذا الغطاء على حياتهن، فكرت في أولئك الذين يمكن أن أنقل إليهن خبرتي، فكرت في الطاقة التي يمكن أن أعطيها للجميع من أجل مواصلة المقاومة.

جلسة
برجمانية مغلقة

عندما عادت ياسمين إلى إيران لم تكف عن العمل، وها هى مبعدة مزاحة جانباً، وأفلامها تستقبل باعتبارها «مشوشة» لأنها تصطبغ «بعقلية قادمة من الخارج».

ـ صحيح أننى لا أعمل فى تربية الجماهير.. ولك نفرق بين ذلك وبين أن تقول إننى لست إلا هامشية لا تعبر إلا عن هامشيين! أن تقول إن «السيدة مالك نصر لا تمثل سوى واحد فى المائة من السكان، ولا تختار موضوعاً لها إلا واحداً فى المائة من السكان، ومن ثم فإن أفلامها لا تخاطب سوى واحد فى المائة من السكان» أى حماقة! خذى فيلمى «نفس الألم»، ورغم التوزيع غير المنطقى مثل رقيبنا العزيز، فإنه مع هذا قد ملأ قاعة العرض سبعة أسابيع متتالية. وإذا كان فيلمى «قصص الأطفال المدللين»، قد اجتذب الشباب الإيرانى، وهو الذى ولد وتربى فى ظل الروح الثورية الصلبة، فما ذلك إلا لأنهم وجدوا أنفسهم فيه بشكل ما، «نفس الألم» عنوان مقتبس من أحمد شملو أعظم شعرائنا المعاصرين، إن «نفس الألم» قصة عن أحد المثقفين كتلك التى كثيراً ما نراها على الشاشات الأجنبية.. إلا أنها هذه المرة تتحدث عنا نحن، عن رجال ونساء فى الجمهورية الإسلامية يفكرون، ويعانون لأنهم يفكرون.

إنه أشبه بجلسة مغلقة تذكرنا بأفلام برجمان، التقطت فى شقة بورجوازية فى شمال طهران، وتجرى أحداث الفيلم فى ليلة واحدة، ويعود الماضى فى (فلاش باك)، أما المستقبل المتخيل فيظهر فى (فلاش فورواد)، وتلك أول مرة تستخدم فيها هذه الطريقة فى السينما الإيرانية، وشخصيات «نفس الألم» أربع، رجلان وامرأتان، يتلقون ويتصادمون ويتفلسفون حول مائدة عيد ميلاد: الحنين إلى الماضى، والزيجات الفاشلة، والاعترافات بالعزلة، بالعجز، مع خيط رفيع من الأمل رغم هذ اكله.

وأمام خلفية الحوارات ترتسم حياة جانب كبير من المثقفين الإيرانيين، وهى حياة مأمونة نسبياً، طالما أنك لا تسلط الضوء على آرائك. لكنها حياة تفتقر إلى الهواء، إنها فى الأغلب حياة من الانطواء، على ذاتك، أو محاطاً بحفنة من أصدقاء يشبهونك وتثق فيهم.

فيلم إيراني للغاية حتى بحجاب بطلاته، فهذا الحجاب لا غنى عنه كي تمر من الرقابة، حتى إذا لم يكن لوجوده في هذه الحالة أدنى معنى - إن شخصيات «نفس الألم» شخصيات عالمية، ربما كانت نماذج، لكنها ليست عينات للدعاية.. «وصورة للمرأة المستقلة كما لم نرها في السينما الإيرانية منذ «الطوب والمرايا» لإبراهيم جولستان منذ ثلاثين عاماً» على حد قول الكاتبة ميهان بهرامي التي تضيف «ورغم أن سينمائيينا قد يزعمون العكس فإن رغبات المرأة، رغبات روحها ورغبات جسدها، لم تجد أبداً تعبيراً عنها، والقليل الذى يقدم لنا مشوه دائماً إذ يأتي من منظور الرجال، وما يجعلونا نراه من المرأة ليس سوى مخطط غامض وليس أبداً صورة حقيقية».

إنها لمحات يفهمها المشاهد الإيرانى المدرب.. فى لمحة عين، شأن وجود صورة فوتوغرافية - رمزية فى «نفس الألم»، صورة الشاعرة فروغ فاروخاد، التي توفيت شابة في الثانية والثلاثين، لقد تجاسرت فروغ المتمردة على أن تتغنى بالحب الحسى، وشاركت فى السياسة، وباختصار عاشت حياتها القصيرة الممزقة مليئة. وإذا كانت الفتيات يوقرنها فإن جانباً من كتاباتها محظور منذ الثورة.

وتبتسم ياسمين قائلة:

- كثيرات من المراهقات يكتبن لي اليوم يشبهنني بها: «يا لشجاعتك يا ياسمين.. لقد أصبحت في نظرنا فروغ أخرى، نموذجاً يساعدنا على أن نعيش».

التزام ومديح وهجوم

«نفس الألم» منذ اليوم الأول لعرضه في عام ١٩٩٥، في مهرجان الفجر في

طهران والفيلم يثير الجدال، فهو في نظر الكاتب والناقد أومين روحاني قصيدة، «قصيدة في شكل فيلم، يعكس معاناة طبقة اجتماعية خاصة، هي نفسها واقعة في شراك لبيئة اجتماعية شديدة الخصوصية هي بيئتنا». أما الناقد الشاب أحمد طالبى فإنه يوجه إعجابه للمخرجة: «.. إن مجرد تجاسرك على أن ترفعي زاوية من الحجاب الذى يغطى حياة مثقفي جيلنا يستحق فى ذاته التحية، ففي الوقت الذى تحذر فيه السينما الإيرانية من تناول هذا الموضوع، انطلقت أنت وأمسكت بالثور من قرنيه».

وعلى هذه المدائح ترد صواعق الحمقى «ما صلتنا بهذه النخبة الإيرانية المتغربة؟ ماذا تمثل لنا هذه النماذج؟ إن هذه المخرجة لم تعد تنتمي إلى بلدها، وما كان ينبغي السماح لها بأن تصور هنا!».

كم هي مبتذلة تلك «النظرات الحسية» التي يتبادلها عن بعد رجل وامرأة غير متزوجين، وكم هي بغيضة هذه الزوجة التي تبدى حبها لزوجها أمام أصدقائه، وكم هو تعس هذا الزوج الذى يدع نفسه ينجرف لسبب واحد هو أن زوجته قد هجرته. ومن شنائع الفيلم الأخرى أن أياً من أبطاله لم يكن لديه أطفال.

غير أن رائحة الفضيحة إنما تأتي بوجه خاص من شخصية فاريبا، المرأة الكاتبة، التى أدت دورها المخرجة نفسها، فاريبا التى تخلق، وتشق طريقها المهنى، وترفض أن تعيش بواسطة رجل أو من أجل رجل، فاريبا المطلقة من زوج لم يكن يكف عن أن يردد لها.. «لقد ضقت ذرعاً بأصدقائك المثقفين، الذين يتلمظون دائماً بالأشعار!»، هؤلاء المثقفين الذين يصورهم الفيلم جيداً، إنهم عالميون إلا أنهم فى الآن نفسه فارسيون بأرواحهم بحكم تلك المكانة التى يشغلها الشعر لديهم.

لكن ياسمين ليست مجرد امرأة مترفة تقضى وقتها في صنع العواطف وتحليلها وإعادة صنعها، بل هى أيضاً امرأة واقعية تقطع بلادها والكاميرا فى يدها، وامرأة ذات قلب، فبعد أن ناضلت من أجل ضحايا الهزات الأرضية انطلقت لتصوير آخر ضحايا الجذام فى إيران، فما زال من هؤلاء التعساء ثمانية آلاف، كما تقول الأرام الرسمية، كلهم تقريباً من الأكراد، ويعيشون مع أسرهم قرب تبريز ومشهد، فى مستعمرات جذام مريحة غير أن ثمة (تابو) يحيط بوجودهم صممت المخرجة عى أن ترفعه.

ودق جرس الباب، ووقفت ياسمين واتجهت إلى الباب، لم يكن الزائر سوى صديقها المهندس المعمارى الذى دخل مندفعاً، وصافحنى باليد وتلك حركة عادية لكنها تستحق أن تذكر، لأن تحية المرأة بلمس يدها محظورة على الرجال، ثم دخل، وهو يمضغ بسكويتة التطقها وهو يمر أمام المائدة:

ـ قولى لى ياسيدتى.. أنت يا من تقطعين أركان الجمهورية.. أفلم يقل أحد لك بالصدفة أين يقع خطهم الأحمر؟ نعم، أنت تعرفين جيداً، ذلك الخط الأحمر الشهير الذى يحدد على ما يبدو الخفايا التى لا تحصى لمحظوراتهم، إن سلطاتنا لا تكف عن تهديدنا بالعقاب إن تجاوزناه.. غير أننا لا نعرف أين يوجد هذا الخط.

وانطلقت ياسمين ضاحكة ثم قالت:

ـ هذا هو الشأن كذلك فى السينما، فكل شىء دائماً غائم، وخط التصريح / عدم التصريح يتذبذب، ولكن فلنكن منصفين، فإن أفلاماً فرض عليها النفى سنوات طويلة، قد أطلت أخيراً اليوم.

«فى المعطف الجميل»

(بالفرنسية فى الأصل)

مثل فيلم «رجل الجليد» من إخراج داود ميربغرى الذى أسرعت لمشاهدته فى اليوم التالى: إن هذا الفيلم الذى ظل محظوراً ثلاث سنوات يحقق نجاحاً ساحقاً فى العاصمة فى شهر يناير ١٩٩٨، ويتدفق الشباب البورجوازى عليه فى جماعات، فلنجلس، وتطفأ الأنوار ببطء، أثمة غشاوة على عينى؟ خيل إلىّ أن البعض يتقاربون، بل أنهم يتلاطفون قليلاً فى الصف الخلفى.

قد يكون الاختلاط مباحاً فى الجامعة، وفى الأماكن العامة والشوارع والحدائق والكافتيريات، لكن هذا لا يمنع أن ابتسامة أوسع مما يجب، أو رأسين منحنيين ولو

قليلاً إحداهما نحو الأخرى، أو أياد تحتك .. كلها أمور خطرة، وأنه لعذاب شديد إذا ذكرنا أن أكثر من نصف السكان الإيرانيين تقل أعمارهم عن العشرين سنة، وأنهم ولدوا بعد ثورة عام ١٩٧٩ .

هم بعيدون إذن عن الزواج، نقطة الخلاص، ولكن كيف تقتل سحر الدلال؟ من الأيسر أن تخنق الحياة! فتحت عيني على العاصمة الضخمة، إن صالونات الكوافيرات لا ترى لأنها مختفية في الطوابق، لكن (الموضة) تنتشر في الشوارع. ولأنها مستوردة من أوربا فإنها غالية جداً ومن ثم فإن العامة يكتفون بنسخ من المنتجات الغربية كثيراً ما تصنع في إيران. والمحلات الكبرى للمعاطف كثيرة («المعطف الجميل»، وتكتب حسب النطق الفرنسي بحروف فارسية) : ملايين المعاطف على ملايين المشاجب، معاطف كثيرة للغاية، بعضها في الواقع .. جميل، بل جميل جداً، وكثير من الإيرانيات من الجمال بحيث يرتعش لهن الشارع حتى وهن مغلقات، ثم هناك ذلك الفن الذى لا يحاكى بأن يكن فارسيات، آلاف الطرق للهو بتلك الخصلة التي تتجاوز الوشاح، أو لاستخدام الظلال الفنية للمكياج. وهو كياج يقمن ـ مثلنا جميعاً ـ بإصلاحه أمام مرآة السيارات، لأنهن يستطعن القيادة، لكن الدراجة محظورة.. أما الموتوسيكل .. فإن بوسع بريجيت باردو أن تتغنى كما تشاء بسيرج جينسبورج ولكن لن يكون بوسع الإيرانيات غداً أن تركبن موتوسيكلات من ماركة «هارلي ـ دافيدسون، دون أن يكن بحاجة إلى أحد، وشعورهن تتطاير في الهواء».

(ذكور)

الإسلام والسينما

ولكن لنعد إلى ما بعد الظهر هذا في دار السينما ،إلى «رجل الجليد»، مثار الجدل. لماذا بحق الشيطان منعوا هذا الفيلم طيلة هذه المدة؟ صحيح أنه يحوى

أغاني، بل أن بحق المشاهدين يتجاسرون على أن يرددوا الإيقاع باستحياء بأيديهم، لكن المخرج اقتصر في حذر على أصوات رجال، فما من أحد يجهل في إيران أن صوت امرأة تغني يثير الشهوة.. وتمضي الأحداث دون مفاجآت حتى تظهر «توتسي» إيرانية، بقبعة نسائية، وكعب عال، وألوان مبهرجة... كل شيء هنا. أهو هذا إذن: لقد تجاسر داود مربغري على أن يعرض رجلاً متنكراً في زي امرأة، رجلاً مختزلاً إلى امرأة؛ فالواقع أن (ذكور) إيران قد أعلنوا الحرب على المخنثين، فهم في نظرهم - يهزءون بالرجولة - وعلى أي حال فإنهم ليسوا وحدهم في ذلك، فأنا أعرف آخرين كثيرين، يشبهونهم تحت سماوات أخرى.

ففي «رجل الجليد» أبدع الممثل الشهير أكبر عبدي بجسده الممتلئ في أن يتقمص شخصية إنسان إيراني طيب يسعى يائساً إلى الهجرة إلى ما وراء الأطلسي، وبعد أن تمكن بالغش من العبور إلى تركيا وجد هذا البائس نفسه محتجزاً لشهور في استانبول حيث أجبره عجزه عن الحصول على تأشيرة دخول لأمريكا على تقبل اقتراح مجنون للغاية: أن يتنكر في مظهر امرأة حتى يتزوج أمريكياً، زواجاً أبيض لكنه غال جداً نتيجة طمع الزوج المقبل والوسطاء الأتراك.

ثم مفاجأة - وعمل رائع من مخرج يعرف إلى أي مدى يستطيع أن يمضي. فقد وقع بطلنا في غرام فتاة من مواطنيه هاجرت إلى استانبول لكنها مازالت ترتدي الحجاب على الطريقة الإيرانية، فغير اتجاهه في اللحظة الأخيرة، ويودع رجلنا الزخارف النسائية، التي هي في ذات الوقت كاريكاتيرات للغرب، ويقرر العودة إلى جنسه وإلى بلده الأصلي، وكما أوضح لي بوقار طالب هرع لمشاهدة الفيلم للمرة الرابعة، ونحن نغادر دار السينما ليبهرنا ضوء النهار:

- لقد أحب الفتاة، هذا صحيح، لكن هذا ليس كل شيء، لقد أدرك كرامته، وأدرك أنه على وشك أن يفقد هويته مرتين: أولاً رجولته ثم عزته الإيرانية.

في أصفهان..

التواءات العقل الفارسي

سبتمبر ١٩٩١، الوصول إلى أصفهان يعني في البداية عبور منطقة جافة،

مساحة واسعة يغطيها الغبار، ومن هنا يأتيك هذا الشعور بالارتياح عندما تدخل إلى قلب المدينة وتبرز أمامك زرقة المساجد كأنها المياه العذبة. إن هذه المساجد اللازوردية المرصعة بالنجوم الذهبية وذات الماضى المهيب تلقى اليوم بظلالها على الميدان الذى أعيدت تسميته منذ الثورة «ميدان الإمام». وقصر على كابو الساحر يمتد بطوله، وأعمدته الرقيقة قد شوهتها مع الأسف الصور الضخمة للرجلين اللذين لابد وأنك تعرفهما ـ أعنى الإمام الخمينى وعلى خامنئى المرشد الروحى الأعلى.

ويقال إنه تحت أيقونات الجمهورية الإسلامية هذه نفذت مؤخراً عمليات إعدام. أهذا حقيقى؟ هكذا همست لأحد التجار المنتشرين في الميدان، لقد قالوا لى إن أناساً قد شنقوا منذ بضعة أسابيع.

ـ أوه، إنهم نكرات لا يصلحون لشيء، عدد من الأفغان كما هو الشأن دائماً، لصوص! هلمى بالأحرى لرؤية محلي.

وعلى مسافة أبعد كان بائع البطاقات البريدية قد وضع فاترينته الدوارة أمام مسجد الشيخ لطف الله.. وهناك.. ماذا أقول؟ كان بوسع سيل النساء المنقبات أن يدفعنى في طريقه وهو يمر فما كنت لأحس به إذ خلبت لبى طيور أخرى أزهى ألواناً.. وأقل ثياباً.. نعم ففيما بين صورتين للمآذن كانت الفاترينة تعرض صوراً أباحية، ولائم مرسومة بأسلوب المنمنمات القديم.

وقال لى التاجر فى هدوء:

ـ حتى يعرف الناس ما ينبغى أن يتجنبوه!

وإذ أربكتنى التواءات العقل الفرسى عدت إلى التواءاتى أنا، عبر المدينة، حتى مكان موعدى التالى، حتى هذ االباب الذى يطل على أحد الشوارع الفسيحة المحاطة بالأشجار، وفتحت لى الباب يد حذرة ففى أصفهان كان يعيش، أو بالأحرى كان يوجد، إيراج متاهدة أسقف الإنجيليين فى إيران، محمياً وحبيساً فى آن واحد بين جدران عالية، وسط الديكور المهجور لما كان من قبل مملكته، مع الكنيسة والمستشفى والمدرسة ومركز المكفوفين ـ موضع اعتزازه.

كان قد نصب عام ١٩٩٠، قبل عام من زيارتى خفية تقريباً «مامن أد من الخارج

قد سمح له بالقدوم»، والأسقف يعيش حياة متواضعة للغاية.. نحيف، يرتدى بلوفراً وسروالاً، رجل عادى إذا نحن أغفلنا حدة نظرته ـ ولكن كيف تستطيع أن تغفلها؟

ـ لقد صادرت الثورة الإسلامية كل ممتلكاتنا إلا الكنيسة، وسمحت لى بأن أؤدى القداس، ولكن الاجتماعات محظورة خارج السقيفة. وكل شيء بين أيديهم، وعيونهم في كل مكان، وعليّ في آن واحد أن أكون حذراً ومخلصاً لسيدى، وهو وحده الذى مكننى من ذلك.

وأشار الأسقف إلى النافذة.

ـ انظرى إلى هذا المبنى، هناك، على بعد خطوتين في مواجهتنا، إنه مستشفانا.. الذى لم يعد لنا..

وانطلقت زوجته، الإيرانية مثله، شعرها أشيب وعيناها داكنتان

ـ لم نعد نضع أقدامنا هناك، لكنه ليس سراً أن المستشفى لا يلقى عناية فكل ما يمكن أن يباع قد بيع، اللهم إلا الأغطية التى لم يريدوا لمسها لأننا طرزناها بالصليب.

نشاط الكنائس

تبقى الكنائس نشطة رغم ألف صعوبة وصعوبة تواجهها، بل لقد تمت عمليات تنصير، ويتحدثون عن اجتماعات مستترة، إن لم تكن سرية، وبالنسبة لى كانت هذه الأقاصيص تفوح بشيء رأيته من قبل، شيء سمعته من قبل، شيئاً يذكرنى بريبورتاجى عند الجانب الآخر من حدود إيران، فى سنوات الجليد فى الاتحاد

السوفييتي، مما يؤكد أن كل أيديولوجية في السلطة، أياً كانت تلد التعصب.

ويمكن أن نقول هنا إنه حتى فى إيران اليوم يحدث أن يجد بعض الشباب فى طريقهم، وهم يبحثون عن إله الحب، أو وهم يبحثون داخل أنفسهم، طائفة ما، طائفة مستوردة، مثل هارى كريشنا، وغنى عن البيان أنهم يتخفون، فهذا شرط أساسى لبقائهم. وقد أسرت لى «معصومة» التى تربت تربية إسلامية، أنها وجدت سعادة هذا العالم فى الثياب الزعفرانية، والرجال حليقى الرءوس، والتمايلات التى تدير الرأس، والمزامير السرمدية.

ـ منذ بضعة أسابيع استأجرنا جميعنا قارباً وأبحرنا بعيداً فى بحر قزوين.. الماء.. السماء، كنا نغنى، وتجاسرنا على الغناء،وأحسست أننى حرة.. حرة!

لقد عثرت «مسعودة» على طريقتها الخاصة لمقاومة رداء الملالى، وثمة طرق أخرى، أشكال مختلفة، نادراً ما تكون مرئية، ومن ثم يصعب مراقبتها، لكنها مع ذلك موجودة جميعاً، وقد قيل لى مراراً وتكراراً، كالمراهقات اللاتى ضقن ذرعاً بارتداء الحجاب، يقمن فى بعض الأحياء الميسورة فى شمال العاصمة، بقص شعورهن (ألا جرسون)، وارتداء (أنوراك) موحد للجنس، ويضعن على رءوسهن قبعة بيسبول، بل يتردد أنه يوجد (بانك) مختفون فى مكان ما، وقد صبغت خصلات من شعرهم باللون الوردى.

ولكن فلنعد إلى المسيحية، إلى أصفهان، إلى الأسقف الإنجيلى وفيض اعترافاته.

ـ أن ما يثير الضيق، كما ترين، هو أننا نحن الأقليات الدينية نجتذب كالذبات أسراباً من أناس.. بماذا أصفهم؟ أناساً (مهزوزين). والرب بأمرنى بأن استقبلهم حتى إذا لم أكن أقر تجاوزاتهم، وهى تجاوزات قد يدفع المرء أحياناً حياته ثمناً لها.. خذى مثلاً هذا الشخص، البسيط الخشن للغاية، إننى أعرفه جيداً لأنه تزوج فتاة من مركز الكفيفات.

وتوقف الأسقف قليلاً إلى أن صبت زوجته الشاى من الساموفار فى فناجيل بيضاء من الصينى ثم استطرد قائلاً:

ـ وإثر كثير من التحولات استقر صاحبنا فى النهاية فى شمال إيران، بين أفراد

الطائفة الإنجيلية في مشهد، المدينة الإسلامية المقدسة الكبيرة. وهي طائفة إنجيلية صغيرة للغاية حيث لا تضم أكثر من بضع مئات من المؤمنين. ولا شك أنه كان أخرقاً: لقد أصبح هذا المتحول قساً لكنه مع ذلك احتفظ باسمه الإسلامي، وهو ليس له اسم: وإنما اسم الحسين شهيد الإسلام الشيعي! وأخذ يدعو إلى عقيدة المسيح بحماس، موزعاً المنشورات، ومحولاً بيته إلى كنيسة، معلناً لمن يسمع أنه إذا كان الله قد ابتلى إيران بالهزات الأرضية فإنما ليعاقب سلطاتنا.

وخفض الأسقف صوته:

ـ المسكين... وكما تستطعين أن تتوقعي فقد ألقوا القبض عليه في النهاية، ثم قيل لي إنهم عذبوه، وفي ديسمبر ١٩٩٠ أعدموه.

المسيحيون واليهود والزرادشتيون

وماذا عن قصتك أنت يا أبي؟

ضم موتا هادى يديه، ثم أخذ يستعيد ـ ونظرته تكذب نبرة صوته الهادئة ـ عام ١٩٧٩، الشهور الأولى للثورة الإسلامية، أيام الفوضى والتجاوزات الملازمة للأسف لكل الثورات، وروى كيف ألقى القبض عليه، وهو رجل الكنيسة، ثم سجن أولاً في أصفهان ثم في سجن إيفين السياسي في طهران، وقد خرج منه بحمد الله لكن من بين زملائه من لم يكن له حظه.

ـ اندست الدهماء في صفوف طائفتنا، ناشرة كل أنواع الضجيج، ومبالغة في علاقاتنا بالغرب.

ووقعت هذه الشائعات في آذان زاد من انتباهها الجو الذى كان حينئذ ملتهباً بالعداء للغرب، حتى لقد اعتبر البعض الرداء الإنجيلي راية، ورمزاً لإنجلترا الدولة المحتلة السابقة.

ـ الحمد لله أن الأمور هدأت منذ تلك السنوات السوداء، وأخذت الأقليات الدينية تتنفس الصعداء.

هل الأسقف موتاهدى متفائل؟ يبدو أن بعض الشواهد تعطيه الحق فى ذلك. وما يدور في رأسى على سبيل المثال هم اليهود، من خمسة عشر إلى عشرين ألف نفس في إيران. وهم إن كانوا ممثلين فى «المجلس»، البرلمان، إلا أنهم لا ينظرون إلى الحياة نظرة وردية، وقد صفا أفقهم بعض الشيء منذ توقفت المعارك بين إيران والعراق، وحتى نستطيع اليوم أن نفهم وضعهم فى ذلك الحين علينا أن ننغمس للحظة في جو سنوات الحرب، ونسترجع الشعار الذى أطلقه الإمام الخمينى للاستخدام الداخلي: «هيا إلى القدس!»، دعوة للسلاح توحى بوضوح بأن العراق لم يكن في الواقع سوى مرحلة في طريق طويل إلى ما كان ـ ولعله مازال ـ الهدف الأخير للحرب المقدسة: تحرير القدس، ثالث الحرمين، والقدس تحتلها إسرائيل.. أى اليهود.

ـ الهدف الأخير للحرب المقدسة: تحرير القدس، ثالث الحرمين، والقدس تحتلها إسرائيل.. أى اليهود.

ويبدو أن السلطات الإيرانية قد نست فى اللحظة الحالية الطريق إلى القدس ومن ثم قد سمح لليهود شيئاً فشيئاً بأن يسلكوا طرق العالم.

ويبقى أنه منذ قيام الثورة كانت كل أقلية دينية، سواء كانت مسيحية أو يهودية أو زرداشتية ـ وهى ديانة فارس القديمة التى ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف عام ـ تتمتع بحقوق أقل فى إيران، فإذا وقعت حادثة سيارة مثلاً فإن التعويض الذى يدفعه المذنب لأسرة غير المسلم الذى أصيب أو قتل فى الحادث أقل كثيراً. وبوضوح فإن المسلم المصاب يساوى أكثر كثيراً من يهودى أو مسيحى أو زرادشتى في نفس الحالة، أما المصابة غير المسلمة فهى بلا شك أقل الضحايا تكلفة، فالمرأة لا تساوى أصلاً فى نظر القانون سوى نصف رجل.

والويل لغير المسلم الذى يضبط مع مسلمة! ولنشر إلى رجل الأعمال الألمانى الذى قبض عليه مؤخراً فى عام ١٩٩٨: فقد اتهم بأنه أقام علاقة جنسية مع إيرانية مسلمة، ويتعرض التعس للإعدام، لا أكثر ولا أقل.

فلترحل

وماذا عن البهائيين.. إنهم أكثر الطوائف مسالمة، ورغم ذلك تتهمهم السلطات بالعداء للإسلام؟ ماذا أصبح هؤلاء البهائيون الذين اضطهدوا بشدة مع بداية الثورة؟ رد الأسقف على هذا السؤال بحكاية:

ـ منذ فترة كان لابنى زميل فى الجيش، شاب يدين بالبهائية. حسناً إن رؤساءه يحترمونه، ولم يجبروه أبداً على أداء الصلوات الإسلامية. لقد عانى البهائيون معاناة رهيبة، لكنى لا أعتقد أننى سمعت عن إعدامات منذ فترة طويلة وقد أطلق سراح بعض البهائيين بعد أن سجنوا طويلاً.

ابتسامة غامضة، ثم فى سخرية مستترة.

ـ وبالطبع فإن ما أقوله لك هو الشائعات التى تصل إلىّ من الخارج، لأننى لا أكاد أخرج.

وعند حديثنا فى عام ١٩٩١ لم يكن لدى الأسقف الإنجيلى سوى حلم وحيد: أن يشم الهواء، أن يسافر فى النهاية خارج إيران، وهو حلم معلق على الحصول على جواز سفر طلبه منذ عامين دون نجاح، عامان من الرسائل والمذكرات والانتظارات التى لا تنتهى والتوسلات.

وقد سُمح لزوجته بأن تتوجه إلى إنجلترا، لحضور زواج ابنتهما. أما هو فلم يصرح له. ومن ثم فقد بقى.. وحيداً مع عدد من المؤمنين بعد أن توزع الباقون فى البلاد، وحيداً مع كنيسته بزجاجها الملون الذى هشمته الغارات العراقية، وحيداً مع صور أسرته المبعثرة، وصورة كنيسة مونمارتر فوق الأريكة، وحيداً مع حديقته المهملة.

لكن معه إيمانه.

أن تكون أرمنيا فى جمهورية إسلامية

ـ تطلب الأمر وقتاً حتى ينتهى الاتحاد السوفييتى بالتحلل، وحتى تكون لنا فى النهاية أرمينيا، جمهورية مستقلة عاصمتها إريفان. أما اليهود فلديهم إسرائيل منذ وقت طويل... والمشكله أنه ليست لدينا أمريكا، ليست لدينا أم رؤوم تساندنا.. إذا كنت تعرفين أحداً يهمه الاستثمار...!

انطلقت هذه الملحة من خلف لحية سوداء، لحية أخرى فى طهران، لكنها أرمنية هذه المرة، وهذا هو الفارق. والأب أرتاك مانوكيان هو مالكها الموقر، لحية أسقف مثقلة بالسلطة، كما هو مثقل هذا (الديكور) الذى يوجد فى عرشه: مكتب واسع، بجدران مليئة، تشرف عليها على الدوام صورة نسر، الطائر الذى يرمز للحرية الأرمنية.

وصور فى كل مكان، أكثرها إثارة للدهشة؟ مانوكيان يجلس متربعاً إلى جوار الخمينى. كان هذا فى عام ١٩٧٩، فى الأيام الأولى للثورة، الأسقف والإمام: رداءان، زيان تاريخيان، وكأرمنى فطن لم يفت مانوكيان أن يستخرج مئات النماذج من هذه الصورة ليقدمها لزواره.

ـ وهذا أيضاً صليبان أرمنيان صغيران، واحد لك يا سيدتى، والثانى للمغنى شارلز أزنافور إذا رأيته، فقد قيل لى إنه يعيش لديكم فى سويسرا.

كان ذلك فى عام ١٩٥٩ حين هبط أرتاك مانوكيان، قادماً من لبنان، إلى الكوكب الإيرانى للمرة الأولى. وقد نصّب صغيراً جداً، فى الخامسة والعشرين وهو اليوم يحكم بلا شريك الأبرشيات الأرمنية الثلاث فى البلاد. وكل هذا العالم الصغير، على شاكلة كنيسة إريفان فى أرمينيا، يتبع بطريرك لبنان.

ومازال هناك مائتا ألف أرمنى يعيشون فى إيران، نصفهم فى طهران، وطيلة ربع القرن الأخير مرت عدة مواجهات بالدياسبورا الأرمنية فى إيران.. أولاً فى عام ١٩٧٢ حين انتهزت عدة أسر انفراجة فى العلاقات بين الشاه والاتحاد السوفييتى

فاختارت أن تعبر الحدود لتعود إلى مهد تاريخها. وبعد عدة سنوات هرب الأرمنيون الأكثر غنى من إيران التي تحولت إلى جمهورية إسلامية. ومنذ ذلك الحين لم يتوقف الخروج أبداً.

«ليس وضعنا بهذا السوء»

وتمتم الأسقف:

ـ وأني لأتساءل لماذا... فليس وضعنا على أي حال بهذا السوء في إيران، ليحرسنا الله، لكنني لا أعتقد أننا نتعرض هنا أبداً للأهوال التي فرضها الأزير على إخوتنا في أذربيجان.

وهذا صحيح، يزيد من صحته أن الأرمن في الجمهورية الإسلامية يتمتعون بامتيازات بالنسبة للأليات الأخرى، فهم يتابعون بهدوء أعمالهم، التي كثيراً ما تكون مجزية، بل مازالوا يشغلون مراكز قيادية في الجيش، وصرح لهم بإنتاج الكحول واستهلاكه فلم يتوانوا، فضلاً عن قيامهم ببيعه سراً، وبالنسبة للكحول يعرف الجميع أن طهران شبيهة بعض الشيء بشيكاغو في الثلاثينيات، ربما كا هناك حظر، لكن هذا لا يمنع أن البعض يقومون بالتقطير في بعض الكهوف... وليس جميعاً من الأرمن.

وإذا كانت السلطات قد صادرت بعض الممتلكات الخاصة، إلا أنها مع هذا لم تستول على ممتلكات الكنيسة الأرمنية. والدليل هو الأسقفية التي مازالت واقفة دون مساس، واحة للسلام والسكون في جلبة قلب العاصمة.

وهذه الأحجار القديمة في الصور القديمة الصفراء فوق الحائط؟

ـ إنها كنائسنا، كنائسنا الأرمنية العتيقة جداً، والتي تعتبرها سلطاتنا من كنوز التراث الوطني الإيراني: ومازالت ترميماتها التي بدأت في زمن الشاه مستمرة حتى اليوم. كلا ليس الأمر كما هو في تركيا، حيث تركت للإهمال!

وكل هذا جميل، لكن هناك أيضاً ظلالاً، كما في الجامعة، فهي قبل أن تقبل طالباً تستعلم عن أسرته، التي ينبغي أن تكون أسرة مسلمة مثالية ممارسة «لا يشوبها شيء». وإذا كان اسمك جوزيف - مثل ابن إحدى صديقاتي المسيحيات - فإن هذا يمثل عائقاً كان من الصعب التغلب عليه إلا بفضل أحد المعارف من كبار الشخصيات، ومن الصعب كذلك - إن لم يكن من المستحيل - حين تنتمي إلى إحدى الأقليات الدينية أن تختار مهنة «تملأ الرءوس»، كأن تكون معلماً مثلاً، حتى معلماً متواضعاً للغاية، خلف درج متواضع، في قرية متواضعة.

وفي هذه اللوحة، غير البهيجة دائماً، كان الأرمن مرة أخرى محظوظين، فعلى عكس الأقليات الأخرى لم تغلق مدارسهم، وإن لم يمنع هذا الأسقف من أن يصر على أسنانه، أفلم تفرض الحكومة مديرين مسلمين على المدارس الأرمنية التي تبلغ نحو الأربعين؟ كما أن الدروس تقدم بالفارسية باستثناء ساعتين بائستين تدرس فيهما اللغة الأرمنية أسبوعياً.

كان مانوكيان يتحدث بالفرنسية اللبنانية الطروبة، ويضغط الراءات في حنق شديد.

- وها نحن في عام ١٩٩١ ... انقضت عشر سنوات لا قوم فيها بتدريس الديانة في مدارسنا، لقد وعدونا على الدوام بمزيد من الحرية، لكنني لا أرى أبداً جديداً قادماً.

ويواصل الأرمن أنشطتهم الثقافية، وإن كانت عين الأخ الأكبر ماثلة دائماً تراقب كل شيء، كما يفترض أنها تراقب كل نص يذهب إلى المطبعة، أياً كان، ومن أينما جاء، فحتى بطاقات الزيارة تخضع لهذه القاعدة.. وإن كان يضاف إلى هذا في الممارسة بالنسبة للأرمن أن الأخ الأكبر لا يقرأ إلا الفارسية، ومن ثم فإن كل ما يبدع بلغتهم ينبغي أن يترجم.

- الكتب والمسرحيات والقصائد... حتى بطاقات الدعوة البسيطة التي نرسلها إلى أبناء طائفتنا - والتي ينبغي أن يوضع عليها تقويمان، تقويمنا وتقويمهم، التقويم الأرمني والتقويم الفارسي.

إخوة إيران وأرمينيا

عند وقوع الهزة الأرضية فى أرمينيا عام ١٩٨٩ ،هب أرمن إيران سراعاً إلى نجدة إخوتهم.

ويسارع الأسقف ليقول:

- بمباركة سلطاتنا.

لقد أدت الكارثة إلى زيادة تقارب الطائفتين اللتين فصلت بينهما طويلاً الحدود المصطنعة، ثم هناك الرياضة! فهناك زيارات منتظمة بين إريفان وطهران. لكن هذا التبادل «العضلى» لا يكفى لارتياح الأب مانوكيان الذى يحلم بوجه خاص، كأرمنى حتى أخمص قدميه، بالتبادل التجارى.

والحقيقة الحقة هي أن التيار يسير بالفعل منذ أمد طويل، فحين يكون الناس من أبناء الشعب نفسه، يتحدثون اللغة نفسها، ويتقاسمون الذكريات الأليمة نفسها.. وتكون التجارة غريزة فى دمهم، لا تكون الحدود مصمتة، وأسَّر لى أحد سائقى الأجرة «ليست هناك حاجة إلى جواز سفر، ثم أننى أجد هناك كل ما احتاجه، وكثيراً من قطع الغيار الرخيصة لسيارتى». وحين يتوجه رجلنا للتسوق فى أرمينيا يمر بمدينة جولفا، مدينة الحدود التى تقع تخومها فى كلا البلدين.

كل شىء عارض

تحت شمس نهاية الخريف الشاحبة، منزل أنيق فى شمال طهران مختف خلف جدرانه. «إن زهرة فى الخريف هى أكثر من مجرد تحفة أخرى»، شأن أشجار الورد

هذه التى تذيع عطرها الأخير فى كل أركان الحديقة، وعلى المائدة المنصوبة فى ظلال الكرم وضعت يد طبقاً مليئاً كالعادة بأزهار الياسمين التى قطفت منذ بضع دقائق فقط.

الرقة... فارس الخالدة.. فارس المنسية، التى أخفاها ليل الشادور، وكأنما قرأت مضيفتى، الأرمنية، أفكارى:

ـ أعرف.. أعرف.. فهذا الإطار ليس إطاراً بائساً.. إن أقسى شيء هنا هو الشعور بالعزلة.

ثم بصوت واهن:

ـ وكذلك إن كل شيء عارض للغاية، عارض بالنسبة للجميع، فكل شيء أياً كان يمكن أن يتحول فى لحظة إلى كابوس، وفى قلب الهناء منغصات لا تنتهى، فهناك تكتلات ليس بوسعك أن تحصيها، وكل منها يبيح لنفسه سن القانون. ومنذ بضعة أسابيع فحسب كان بعض الأصدقاء الأرمن يقيمون سهرة حين داهمهم عدد من الشباب، بلا زى رسمى، ولا شارة مميزة، ولا إذن كما يتطلب القانون، وإنما مسلحون يزعمون أنهم حراس الفضيلة، وفتشوا، ووجدوا قليلاً من الكحول، وراقبوا الأوراق، وياللفضيحة! إن النساء عاريات الرءوس، والأنكى من ذلك أن الرجال والنساء الذين يجلسون متجاورين على الأرائك ليسوا أزواجاً، وكوموهم بقسوة فى حافلة صغيرة، بعد فصل الرجال عن النساء، كل فى جانب، واقتيد المدعوون إلى «الكوميته»، وألقوا فى الزنازين حيث بقوا أربعاً وعشرين ساعة.

ذراع الله

كان هذا فى عام ١٩٩١، ولكن حتى فى عام ١٩٩٨ لم تنته بعد عمليات (الكوماندوز) هذه، صحيح أنها أقل توتراً، ويبدو أنها أصبحت قصصاً معتادة، فأصدقائى الإيرانيون الذين لم يكونوا هم أنفسهم ضحايا كان من بين أقاربهم

جميعاً واحداً أو آخر «مر من هنا». وهكذا نجد في الآونة الأخيرة تلك السهرة المختلطة لنحو عشرين من الشباب التي قطعت فجأة، واقتيدوا جميعاً، إلى قسم الشرطة، حيث ظلوا طيلة الليل واقفين دون أن يستندوا إلى الحائط، التقاط أنفاسهم، وفضلاً عن ذلك تلقى كل واحد وواحدة منهم عشرين ضربة أسفل ظهره بأحد خراطيم الرش.

أهذا رمز؟ أهو من أجل تخفيف الألم؟ فالواقع أن العرف الإسلامي يقضي بأن من يكلف بضرب المذنب، يفعل ذلك واضعاً طيلة العملية مصحفاً تحت ذراعه، ولكن يبدوأن أحداً لم ير هذا العرف مطبقاً أبداً.

وينصح أولئك الذين لم تنجح هذه البلية في إفقادهم حاسة الفكاهة، في حالة العقاب الجماعي، بأن «تقف قدر الإمكان في نهاية الصف» فحينئذ «ستكون ذراع القصاص قد أنهكت حين يأتي دورك».

وتسخر مضيفتي قائلة:

ـ والاستدارات النسائية بدورها مفيدة، فالألم يقل حين يكون الحشو كبيراً، وعلى أية حال بضعة كيلووات أكثر أو أقل تحت المعطف الإسلامي...

فهذا الزي الإلزامي أشد قسوة بالنسبة لنا، وهي الأرمنية، وتسر لي قائلة:

ـ لكن الأكثر سوءاً هو صورة إيران التي أجرها معي، رغماً عني، حين أسافر.. فحين أخرج جواز سفري الإيراني من حقيبتي تموت الابتسامات، وهذا شيء مؤلم، مؤلم جداً، مؤلم للغاية، ولولا أحفادي الذين يعيشون في أمريكا لما انتقلت أبداً من هنا، ولظللت في حمى جدراني.

ذكريات واحد ممن نجوا

يونيو ١٩٩٧، وحر رمادي معتم يرزح فوق طهران، وفوقي ترزح موجة من

التهيب : هذا الناجي من الحرب ضد العراق ، هذا المشوه الذي يرقد في مكان ما من العاصمة ، كيف هو ؟ وكيف سيسلك معي أنا الذي أقابله سراً ؟

ـ صادقاً ، سيكون صادقاً ، هكذا أكد لي جاره القريب وهو صديق مشترك ، أن مهدي على استعداد للقائك ، وستريه عندي .

وفي الحارة تتشابك منازل بيضاء ضيقة بشرفات تخضر بزهور الغار في الأصص والعنب في العرائش . وهنا يعيش مهدي أشتياني ، الذي تطوع للجهاد في سن الثامنة عشرة ، والذي يحظى اليوم بلقب «الجانباز» ، الذي يخاطر بحياته ، البطل الذي يلاقي الموت دون وجل . وقد أسر مهدي بعد أن أصيب إصابة بالغة ، وظل محتجزاً طيلة عامين في معسكر في شمال العراق .

وإذا استبعدنا السجادة الكبيرة المفروشة على الأرض ، والمساند المرصوصة أمام الحائط ، فقد كانت الغرفة التي جلسنا فيها عارية تماماً . وبعد أن جاهد مهدي طويلاً لكي يتمكن من الجلوس على الأرض رفع سرواله حتى منتصف فخذه ، وخلع ساقه الاصطناعية ووضعها إلى جواره :

ـ أوف !

وما من شيء من الأسى في نبرته ، لقد ضحى بساقه في سبيل الله ولا يندم على شيء . أو هذا على الأقل ما يقوله ولا يكف عن ترديده . على عكس المحاربين القدماء الآخرين الذين عاشوا الحرب مثله في شبابهم ، ويبدون اليوم معتلي المزاج تسيطر عليهم روح عدمية .

ماذا لو طلب إليه اليوم البدء ثانية ، على هذا يرد مهدي قائلاً :

ـ أن تشعر بأنك قريب من الله ، وأن تموت في سبيله . . هذا شيء أعجز عن وصفه . . . أما أولئك الذين يقولون العكس فسيعاقبهم الله ذات يوم ، وأرجو ألا أضايقك يا سيدتي حين أقول إنك لا تستطيعين أن تفهمي هذا الشيء الذي يفوق الوصف .

صبية بلا شعر في لحاهم

واليوم يبلغ مهدى الثانية والثلاثين من عمره، ويعمل محاسباً في وزارة النفط، ويحصل على معاش من الجيش، لكنه لم يتزوج بعد، لا لأنه قبيح، فهو جميل، ولا لأنه جاف، فهو حلو المعشر، دون أن يقلل هذا من عناد العقيدة. وانحنى فوق المولود الأخير لجاره، الموضوع بعناية على السجادة، وأخذه بين ذراعيه وبدأ يهدهده.

ـ أتزوج، أود كثيراً، ولكن بسبب هذا كله فقد فاتنى القطار.

لم يكن أبواه، وأمه خاصة، يريدان له أن يتطوع.

ـ ولكن ماذا يمكن أن يقولا؟ لقد توجهت للحرب في سبيل الإسلام! وليس أمام والدتى إلا أن توارى حزنها.

ويخرج مهدى من صندوق كرتونى حلته القديمة كأسير، التى احتفظ بها بعناية، سروال «لكل الفصول وأحياناً للسنة بأسرها»، بمثابة (بيجامة) وقميصاً طويلاً من القطن المضلع، ثم أخذنا نقلب معاً ألبوم الحرب الذى يحتفظ به، صور صفراء وسط ديكور من الرمل والحصى، ديكور متشابه دائماً.

ـ كان الحر هناك رهيباً.

صور مجموعة أمام خلفية من الصحراء، ومنذ ذلك الحين لحق أغلبهم بالفردوس الإلهى وهم لم يكادوا يغادرون طفولتهم.. وفي الصورة يمكن أن تراهم يضحكون، ويقطبون وجوههم، ويتدافعون: صبية صغار يلهون، وإلى جوارهم مدفع «دوشكا»، التى تغنى بالروسية الروح الصغيرة، وهو اسم ملائم تماماً...

ـ انظرى إلى هذا، على يمين الصورة، إنه شهيد، وهذا أيضاً، وهذا أيضاً، وهذا وهذا... نعم، لقد كانوا صغاراً، صغاراً للغاية، لا شعرة فى لحاهم، وصدورهم ملساء كقطعة صابون.

زاد الرحلة

ذات صباح في عام ١٩٨٣ التقى مهدى وزملاؤه في الميدان، كانت الحافلات في انتظارهم، مزينة بالشعارات، ومستعدة للرحيل، صور تثير الاضطراب كصورة على العظيم بالحجم الطبيعي تحدق فيك من خلف الألواح الزجاجية الخلفية: حيث يبدو كأنه حي.

وتلقى المتطوعون للجهاد الذين تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة زاداً يتألف من : شارة عليها صورة الخميني، وبطاقة بريدية تحوى نفس الصورة، وثلاثة أنواع من ورق الخطابات على كل منها صورة مختلفة: الأولى عسكرية (جنود يغوصون حتى ركبهم في مستنقعات جنوب البلاد، يلوحون ببسالة براية الإسلام)؛ والثانية شاعرية (أطر من الفراشات والزهور تحيط بالورقة كلها)، والثالثة طفولية (حمامة زاجلة متعددة الألوان تحلق فوق ساعى بريد مبتهج، يرتدى (كاسكيت)، ويقود دراجة حمراء)، كما تحوى (الزوادة) كذلك مثلثاً أزرق من القطن، والأسطوانة التقليدية المصنوعة من الآجر والمنقوش عليها صورة مكان مقدس، والتى ينبغى لكل مسلم شيعى أن يسجد عليها بجبهته عندما يصلى.

شاركت في الهجوم الكبير

ـ كنا نحمل أيضاً عصابات تحيط بجباهنا، قطعاً من القماش الأحمر أو الأخضر أو الأزرق، رسمت عليها كلمات، كلمات تنطق بعقيدتنا، وفيما بعد، وفي ميدان القتال، ربطنا عصاباتنا حول خوذاتنا.

وجر مهدى بمعونة ثلاثة من رفاقه مدفعاً رشاشاً... وسار.. سار تحت

الشمس.. وغاص في الرمال، وتعثر في الأحجار...

ـ بل لقد شاركت في الهجوم الكبير، ذلك الذى سمي «خيبر» تيمناً بالموقعة الكبيرة في أيام الرسول، وقد استغرق استعدادنا ثلاثة أيام، ثم شنت قواتنا الهجوم. وكنت قريباً للغاية من الحدود العراقية، في بقعة تسمى مجنون.

وحين أمره رؤساءه أن يعبر ليلاً خطوط الأعداء المغطاة بالألغام داس مهدى على أحد هذه الألغام.

ـ انفجر كل شيء وأنا معه! الرد. قصفنا العراقيون، واخترقت صواريخهم المضيئة الظلمة فترة مكنتني من رؤية قدمي المبتورة وقدتدلت ملطخة بالدماء. وصنع مهدى بشكل أو بآخر، ضمادة بكوفيته التقليدية ثم أخذ يزحف.

ـ زحفت تحت القنابل طيلة الليل محاولاً الوصول إلى خطوطنا، لكن الله أطلع الفجر مرة أخرى، واتسع الضياء، ومعه زاد خطر اكتشاف العراقيين لي. وعندئذ بحثت عن حفرة أدفن نفسي فيها، وكنت آمل أن أظل كامناً فيها حتى الليلة التالية.

لكنه كان أملاً زائفاً، فقد سمع مهدى في مخبئه خطى تقترب منه، وصرت الرمال، ودار حديث بالعربية فوق رأسه، وانطوى على نفسه، وتصاغر، ولم يعد يتحرك، أو يتنفس، ولكن عبثاً.

أسير

ـ لم يكن هولاء أى أشخاص، بل ضباطاً كما يتضح من الشارات على أكتافهم، ووجه أحدهم ضربة لي بقدمه لكي يرى ماذا إذا كنت ميتاً حقاً.. آى، بحذائه الثقيل، لا أستطيع أن أصف لك مدى الألم! لكنني لم أتحرك، وعندئذ أمسك آخر بمدفعه الرشاش...

وفي الوقت الذى كان فيه مهدى يقلد المشهد أمامي، اتخذ وجهه هيئة حكيم في مواجهة حمقى.

ـ ولكن ماذا كان يعتقد هؤلاء العراقيون؟ أن أشعر بالخوف؟ ألا يعرفون أن الشيعى الحقيقى يحمل الموت دائماً فى روحه؟

على أن مهدى مع صوت الزناد قد هب مذعوراً، وانفتحت عيناه رغماً عنه.

ـ كنت هناك متكوراً وسط الرماد، ومدفعهم مصوب نحوى.. وتمتمت بضع كلمات بالفارسية، ولا أعرف إذا كانوا قد فهمونى، لكننى كنت هادئاً، وكان بوسعهم أن يروا ذلك، ثم أخذت أتلو صلاتنا الشيعية: كانت هذه هى النهاية بالنسبة لى، كنت واثقاً من هذا، ومن أننى فى طريقى إلى الفردوس الذى ينتظرنى.

أكان هذا شفقة أم لا مبالاة؟ لقد استدار الضباط فجأة ومضوا فى طريقهم. ومن حسن الحظ أن مجموعة من العراقيين بدون شارات على أكتافهم قد اكتشفوا الجريح فيما بعد.

ـ كانوا لطافاً هؤلاء الجنود، فأخرجونى من الحفرة، وأعطونى ماء،بل دسوا بسكويتة في فمي، وصنعوا من أحد الأغطية نقالة وصحبونى معهم.

ووجد مهدى عندئذ أسرى إيرانيين آخرين مكومين معه فى (الكاميون). وبعد أن سار الموكب عدة كيلو مترات توقف.

ـ وهنا فى هذا المخيم العسكرى بدأ بعض الأشخاص فى التحقيق مع من كانوا أصحاء بيننا، وعذبوهم بالكهرباء لكى يدفعوهم إلى الكلام. لا فى مبنى ثكنة وإنما فى مقطورة مغطاة، وأوصلت الأجهزة ببطارية إحدى سيارات الجيش.

ونظر مهدى حوله فى ذهول.

ـ لو أنكم رأيتم أسلحتهم! لقد كنا ـ بالنسبة لهم ـ فئراناً.

.... وصمت طويل.

هل أنت

هركيول بواريه؟ لقد تعبت

وهكذا كنت أسيراً لديهم، فماذا حدث؟

وبدا الإجهاد على مهدى فجأة، لكنه لم يفد أدبه مع زائرته، ولكي يعبر عن ضيقه بإصرارها اختار الفكاهة.. وأجاثا كريستي:

ـ لكنك تجرين تحقيقاً حقيقياً يا سيدتي؟ أتكونين بالصدفة هركيول بواريه فى زى امرأة.

وانطلقنا ضاحكين معاً، والضحك يهدئ الروع، ثم عاد مهدى يقول:

ـ كانت الرحلة إلى البصرة بشعة: أعيننا معصوبة، نجر من كاميون إلى كاميون، دون طعام، ودون علاج ـ أما عن سيقانا فقد كان الجنود يتسلون برينا بالخراطيم كما يروى المرء حديقته، وكان يضحكهم أن يرونا ممدين على الأرض، وأيدينا مقيدة خلف ظهورنا، وأفواهنا مفتوحة كالسمك خارج الماء، نحاول بائسين أن نلتقط بعض النقاط.

وفى النهاية! وصل الأسرى الإيرانيون المصابون أخيراً إلى مستشفى البصرة، فى أقصى جنوب العراق.

ـ وهناك.. الحرارة والرطوبة.. مستشفى مراوحها سوداء من البعوض وسلال مهملاتها طافحة، ولا أسرة لنا نحن الجرحى الإيرانيون، وإنما أغطية مفروشة على الأرض ومليئة بالبراغيث. ومنذ وصولنا جاء ضابط يتحدث بالفارسية لاستجوابنا، وأخذ فى مضايقتنا، وفى النهاية صحت فيه أننى ضقت ذرعاً بأسئلته وتهديداته، لأننى على أى حال على استعداد للموت: «إن الموت فى سبيل الله شرف يا سيدى»! وعندئذ طاش صوابه إلى حد أنه أخذ فى سحق قدمى المصابة بحذائه العسكرى.

عدو صديق

وأخذت حالة مهدى تزداد سوءاً، والتهبت قدمه، وبدأت الغرغرينا عملها... وبعد أن استخرج الطبيب العراقى المسئول قطع الحديد المغروسة فى اللحم قرر بترها.

ـ وفى ذلك اليوم رأيت للمرة الأولى هذا الجندى ـ الممرض العراقى الشاب واتجهت نحوى نظرته الحنونة، كان هو أيضاً شيعياً. وفى كل ليلة كان عدد من الجنود يقتحمون باب المستشفى صارخين، ثم يبدءون فى ضربنا بالأسلاك، وإذا كنت قد استطعت أن أتحمل ثلاثة أسابيع فى هذا الجحيم فالفضل فى ذلك لهذا الممرض الشيعى الذى لم يكف عن علاجى كأخ، وقد رددها لى مراراً: «مهدى أنت أخى، وأنا أشعر أنك أقرب لى من رجالنا. إن عقيدتنا واحدة، وليست هناك سوى راية واحدة، راية الإسلام الشيعى»... لقد كان مؤمناً حقيقياً، يؤدى صلواته كل يوم.

وكان الافتراق عن هذا العدو ـ الصديق مؤلماً لمهدى.

ـ حين شحنوا نحو عشرين منا فى حافلة متجهة إلى شمال العراق بكينا نحن الاثنين أنا وهو، لكم أود أن أراه ثانية بعد الحرب.

وإذن فلماذا لا ترسل له خطابا؟ ثق فىّ يا مهدى وسأسلمه بنفسى إلى اللجنة الدولية للصليب الأحمر فى جنيف التى ستقوم بإيصاله له فى العراق.

وعندما استمع إلى اقتراحى اكتسى وجهه الذى كان مفتوحاً للغاية منذ لحظة بانقباضة:

ـ أبداً.. إننى أخشى على صديقى، ولن أبوح باسمه أبداً، فالشيطان صدام حسين مازال فى السلطة هناك، وهناك كثير من الجواسيس بين من يعملون فى الصليب الأحمر.

المعسكر

ولكن فنلعد إلى قصتنا، إلى مهدى بعد أن غادر البصرة مع رفاقه الأسرى متجهاً إلى شمال العراق، وفي هذه المرة نقلوا في حافلة ولكن عيونهم ظلت معصوبة، وبقي الجوع والعطش والمعاناة.

- كان بيننا جرحى بالغو الإصابة.

وقضى الإيرانيون بعد ذلك ثمانية وأربعين ساعة في أحد سجون بغداد.

-ولم يدعونا حتى نصلي.. أتتصورين ذلك!

ثم رحيل آخر تحت شمس حامية، إلى الموصل، على بعد مئات الكيلو مترات شمال العاصمة، وهي مدينة باردة كالثلج لأنها مقامة في الجبل.

- ولما كانت العصابات تعمى أبصارنا فإننا لم ندرك إلى أين اقتادونا إلا بعد أن وصلنا إلى معسكراتنا على بعد نحو عشرين كيلو متراً عن الموصل. كانت هناك أربعة معسكرات، مؤلفة جميعاً من مكعبات كبيرة من الخرسانة المسلحة. وكنت في المخيم رقم ١.

وقبيل الوصول إلى الموصل كانت القافلة قد توقفت في إحدى القرى. واقترب بعض الفضوليين من الحافلة وعندما رأوا هؤلاء الركاب البؤساء أخذوا يقدمون لهم الماء والحلوى، بل رأى مهدى الذى كان قد تجاسر على رفع العصابة لحظة صبياً بعث له قبلة على أطراف أصابعه من الناحية الأخرى من الزجاج. وعلى العكس كان السكان في مدينة الموصل عدائيين، حتى لقد اضطرت الشرطة إلى التدخل.

ولم يكن العسكريون العراقيون الذين يحرسون المخيمات أكثر وداً.

- عند وصولنا تعرض الأسرى القدامى الذين حاولوا الاقتراب منا للضرب، وبعد أن تأكد العراقيون من وضع عصاباتنا مروا بنا من أبواب وأبواب، تيه حقيقى، ولم نعد نفهم شيئاً.

أمي..

ماذا يهم

والشهور تمضي.. ومهدى في شراك عزلة المعسكر العارى يشعر بالحزن الشديد، حزين لكنه لم يشعر باليأس أبداً، لأن كل هذه المعاناة كانت في سبيل الله، إنه يتعذب في سبيل الله.

ـ ركب العراقيون في أركان المعسكر الأربعة مكبرات صوت تصرخ يوما بعد يوم بدعاية معادية للخميني. ولانتقاد الإمام راح هؤلاء الحمقى يسمعوننا صوته، لكن هذا على العكس كان يثير حماسنا.

وأطلق سراح مهدى، باعتباره معوقاً، بعد عامين، فعاد إلى أمه في طهران، أمه التي أرهقتها الدموع والانتظار، والتي لقيت نحبها بعد يومين، بعد أن قبلت ابنها بالكاد.

الابن الذى علق على ذلك بهذه الكلمات الفظيعة، التي أشك في أنها قد ترضى الله حقاً:

ـ أعرف أن أمي قد ماتت بسببي، ولكن ماذا يهم!

ثم أضاف محدداً:

ـ ماذا يهم لأن الله يستقبل في فردوسه أمهات المجاهدين بدورهن.

عيد ميلاد

لا يشبه غيره

وأثناء إصغائي لمهدى يجتر ذكرياته كانت ذاكرتي تستخرج من أعماقي صوراً كاد يطويها النسيان، كذلك المشهد السريالي الغائم لأسرى حرب عراقيين

اصطفوا على أرائك . . إحدى الكنائس . فى قلب الحرب ، فى قلب طهران .

ففى الصباح الباكر ذلك اليوم أيقظنى صوت موظف فى وزارة الإرشاد الإسلامى مذعورة فى غرفة فندقى :

ـ ألو يا سيدتى ؟ هل تودين أن تحضرى القداس ؟

ولماذا ؟ وأنا بروتستانتية .

ـ تعالى ، وأعدك أنه لن يكون قداساً كغيره .

بابا الشيعة
وبابا الكاثوليك

يوم الجمعة ٢٦ ديسمبر ١٩٨٥ ، شارع فورسات فى قلب العاصمة ، وكأنى هبطت من كوكب آخر ، ومحاطة بالشرطة الإيرانية فى هندام كامل وأسرى حرب عراقيون ينزلون واحداً واحداً من حافلة متوقفة أمام كاتدرائية سانت مارى ، إحدى المراكز الرئيسية للكنيسة الكلدانية الكاثوليكية فى إيران . يضعون على رءوسهم طواقى منسوجة من صوف بنى ، وبعضهم يرتدى السواد ، وبعضهم يرتدى الكاكى ـ البنى ، وكلهم ينتمون إلى الطائفة المسيحية فى العراق ـ عشرة فى المائة من السكان غالبيتهم من الكلدانيين الكاثوليك بالتحديد .

وأغلقت الشرطة مدخل فناء الكنيسة أمام المارة ، وأخذ هؤلاء ينظرون إلى المشهد من الشارع ، صامتون ، ووجوههم جادة ، ثم فجأة اطلق واحد منهم عبارة «عيد ميلاد سعيد» فى استحياء . ألعله أحد الإيرانيين المسيحيين ؟

كانت لفتة كريمة من الحكومة الإيرانية أن تخرج الأسرى العراقيين المسيحيين لحضور قداس ، من المعسكرات المحيطة بطهران ، حيث يتعفن الكثيرون منذ نحو خمس سنوات . ولفتة سياسية بالمثل . فليحفظ الله الخمينى ، بابا الشيعة ، من الخلاف مع يوحنا بولس الثانى بابا الكاثوليك ولا شك أن الانفراج سيكون أوفق

لو أن السلطات الإيرانية تقيم قداساً هناك كل سنة للأسرى العراقيين المسيحيين فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي ترد فيها روما على دعوة طهران وترسل شخصية رفيعة: الكاردينال ايتشجاراي المسئول بوزارة العدل والسلام في الفاتيكان.

إلى الخلف يا امرأة

أين أنت يا يسوع الطيب؟ إن هذه الكنيسة تفوح بالشك، وممراتها تمتلئ بالحراس. والأمن الإيراني مدجج بالسلاح. هذا الكاردينال الموقر! وهذا الحشد من الرجال المتراصين وكلهم من أعداء إيران!

أما أنا «التي يمكن أن أزعج هؤلاء التعساء الذين لم يروا امرأة منذ سنوات» فقد أبعدوني إلى الرواق ماذا تظنين؟ أسيفرض هؤلاء قواعدهم حتى داخل الكنائس؟ الرجال في ناحية والنساء في الناحية الأخرى؟ هكذا كنت أفكر وأنا محصورة بين الكورس والأرغن، جالسة على ارتفاع الثريات تحت السقف الواسع ذي اللون الأزرق، حينما بدا في أعلى السلم الضيق رجل ضئيل الحجم في رداء أسود، كاهن كلداني كاثوليكي من أصل إيطالي أخذ يهمس في أذني بالإيطالية بصوت خفيض:

ـ أنا أيضاً مبعد، وإنما لأسباب أخرى لنقل إنها دبلوماسية. ولتعرفي أنه إن كانت الكنائس المسيحية الشرقية تعيش حياة تكاد تكون هادئة كالأرمن مثلاً فإن مصيرنا نحن الكلدانيين الكاثوليك ليس وردياً، فالجمهورية الإسلامية تستريب في الكنائس المرتبطة بالغرب وبالتالي في الكهنة الذين يخدمونها، وخاصة الأجانب. وتصوري أنني عرفت بنبأ طردي من إيران في ذات اللحظة التي كان الكاردينال يهبط فيها من الطائرة. وقد طلبت منه التدخل لأنني أحب هذا البلد الذي رسمت فيه منذ تسع سنوات، لكنني لم أتلق منه سوى رد جاف «آسف

ياعزيزى، لا أستطيع أن أفعل شيئاً».

وإذا كان القداس يجرى بالكدانية فإن القراءات تردد بالعربية، ويقول الكاهن الصغير مبتهجاً:

ـ أه! آه! الحراس والأمن وكل هؤلاء المسلمين الموجودين هنا في الكنيسة لابد أنهم يشعرون بالحنق! أن يسمعوا بالعربية، لغة الإسلام المقدسة، أن يسوع هو ابن الله!

قربان تحت الرقابة

كيف لا أشعر بقدر من الشفقة لهذه الرءوس المحلوقة التى أراها محزوزة أسفلى؟ وها هم هؤلاء الأسرى يقفون ثم يسيرون نحو المذبح ويركعون ليتناولوا القربان، وعدسات التصوير تتركز على كل تحركاتهم.

وهمس لى جارى:

ـ حتى لا يخطر لأحدهم أن يسر برسالة إلى الكاهن.

ثم خطاب الكاردينال، بالفرنسية، عبارات ماسخة، اختتمها بالعبارة المتبذلة التى تصلح فى كل مكان.

ـ أشكر السلطات الإيرانية التى سمحت بهذا اللقاء فى مناخ من السلام والأخوة.. أمين.

إيماءات متكلفة من الأسرى، وهم يمدون بخجل إيشارباً مطرزاً أو صورة مقدسة، هدايا صنعوها بإخلاص فى المعسكر العارى، هدايا للبابا، البعيد للغاية هناك فى ترفه.

نغمات الأرغن الأخيرة، وأخذ الحراس يدفعون الرجال نحو باب الخروج.

ووقف الكاردينال على السقيفة ماداً خاتمة حيث انحنى عليه الجميع ليقبلوه. ولم يستطع كثيرون كبح دموعهم.. ليعودوا إلى المعسكر مرة أخرى، لكم من السنوات؟ (وفى الوقت الذى أكتب فيه هذه السطور بعد ثلاثة عشر عاماً لم يعد بعد آلاف الأسرى العراقيين إلى ديارهم).

ثم جاء دورى لتحية الكاردينال. أكان الانفعال ـ كما يحدث كثيراً ـ هو الذى دفعنى إلى استثارته؟

ـ انظر لى ياصاحب السيادة! هذا المعطف الطويل الرمادى الشائه! وفوق رأسى هذا الحجاب الأسود البشع! وأنت يا أبى مسموح لك بارتداء الأحمر! أحمر فى طهران! أحمر من الرأس حتى القدم! ثم رداءك.. المحبوك تماماً.

ذكرى أكثر
من مليون قتيل

منزل صغير يطل على حديقة مهملة، إنه المركز الإيرانى لأدب الحرب الذى لا يوحى مظهره بذلك. وقد انتهت الحرب مع العراق، التى خلفت وراءها أكثر من مليون قتيل، فى عام ١٩٨٨. وكانت تسع سنوات قد انقضت عند زيارتى اليوم فى عام ١٩٩٧، وهو على ما يبدو وقت كاف لحصاد آلاف الكتابات، غير أن المركز لم يكن سوى ممرات خاوية وجدران عارية، إذا استثنينا بضع شعارت قرضتها العثة هنا وهناك.

ـ اطمئنى، فنحن على وشك الانتقال إلى مكان آخر فى طهران، وستتوفر للمركز فى المستقبل مساحات واسعة ومكتبات رائعة.

طيف مشرق يرتدى سترة وسروالاً من التيل.. كان مرتضى سرهانغى المسئول عن المكان، والذى يظهر سنه الأربعون على محياه، يبدو وسيماً رغم آثار الجدرى على بشرته، وثمة شىء أليم يلوح فى ابتسامته.



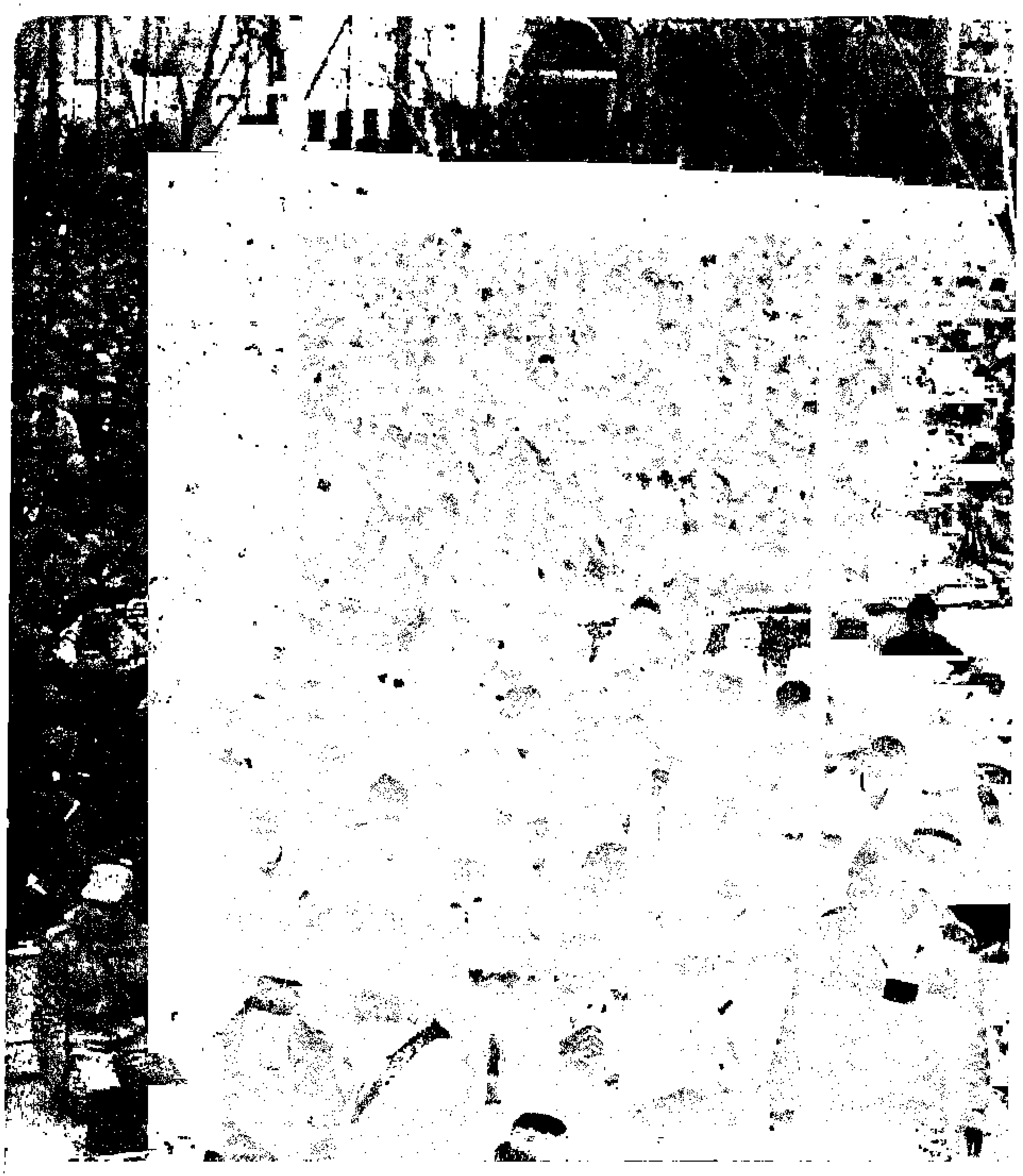
ديسمبر ١٩٩٧.. بعد أن استقبلت طهران المؤتمر الإسلامي



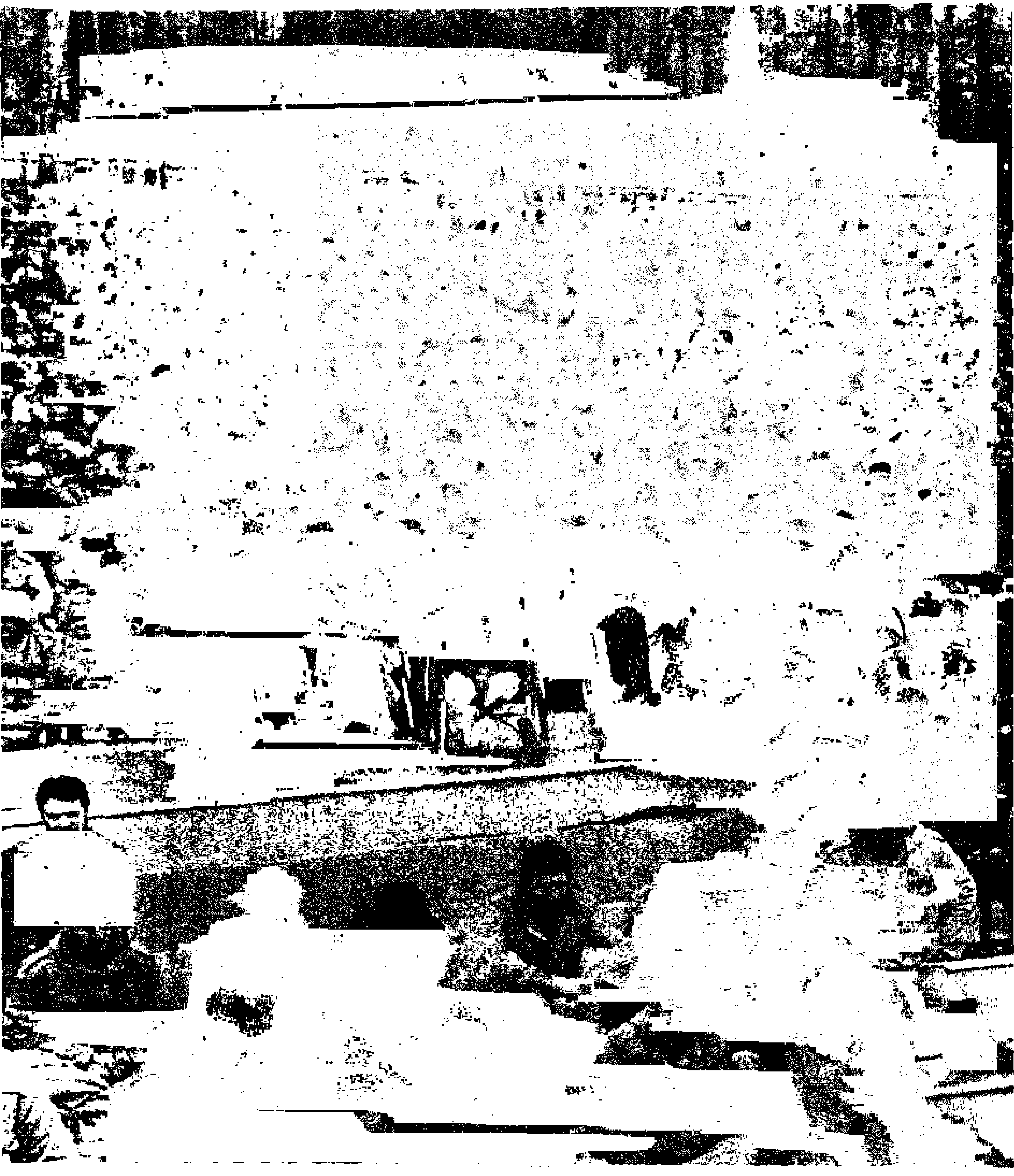
تؤدى صلاة الجمعة في طهران في مكان واحد هو حرم المدينة الجامعية. وتفصل النساء عن الرجال بستارة يبلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار تمتد بطول سور الجامعة، ويصلى الرجال داخل المدينة الجامعية، بينما تصلى نساء في الشوارع المجاورة، ويصغين إلى خطاب آية الله من خلال مكبر الصوت. والمرأة التي ترتدي السواد (الواقفة في الصورة السفلى) أحد أفراد الحرس الثوري. ١٩٨٥.







في نفس اليوم.. الصلاة من جانب الرجال المحتشدين داخل المدينة الجامعية، ويستمر خطاب آية الله.. من فوق منبره المرتفع بالساعات ونستطيع أن نرى في هذه الصورة التي التقطت في عام ١٩٨٥ أثناء الحرب الإيرانية - العراقية، جرحى الحرب الإيرانية في الصف الأول، وعلى يمين الصورة مجموعة من أسرى الحرب العراقيين.



توفى الإمام الخميني في ٤ يونيه ١٩٨٩ ويقوم ضريحه في مدافن بشتي زهرة الهائلة قرب طهران، حيث دفن أيضاً شهداء الحرب والثورة، وفي كل سنة يتوجه ملايين الشيعة القادمين من كل صوب، في إيران وخارجها - لإحياء ذكرى الإمام. وقد التقطت هاتين الصورتين في ٤ يونيو ١٩٩٧.

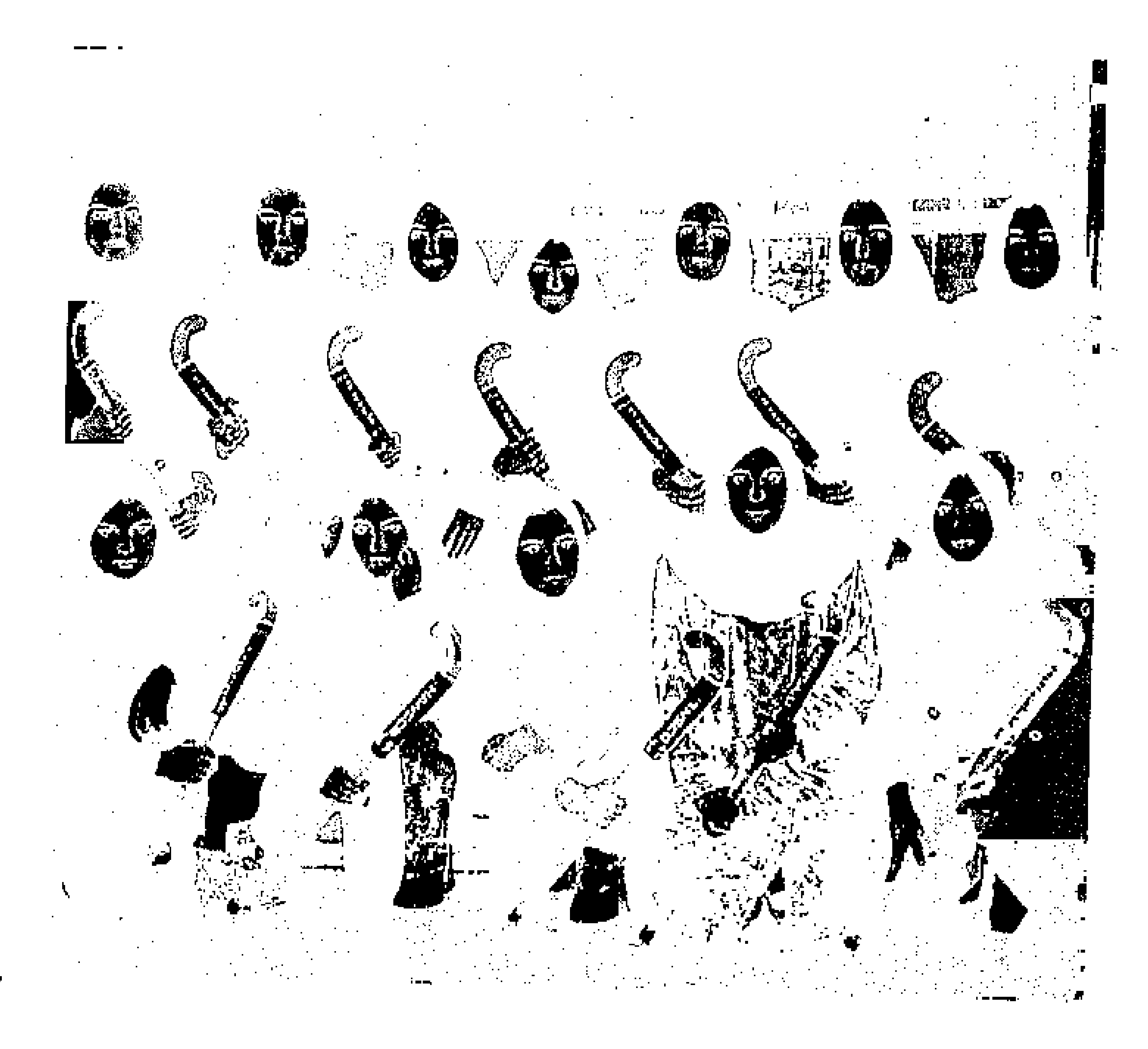






فايزة هاشمى رافسانجانى - التى التقطت صورتها هذه فى عام ١٩٩٥ - هى ابنة رئيس الجمهورية السابق، وعضو فى البرلمان، ورئيسة تحرير صحيفة نسائية، كما أنها أسست فى عام ١٩٩٣ أول دورة أولمبية إسلامية للمرأة (الصفحة إلى اليمن).

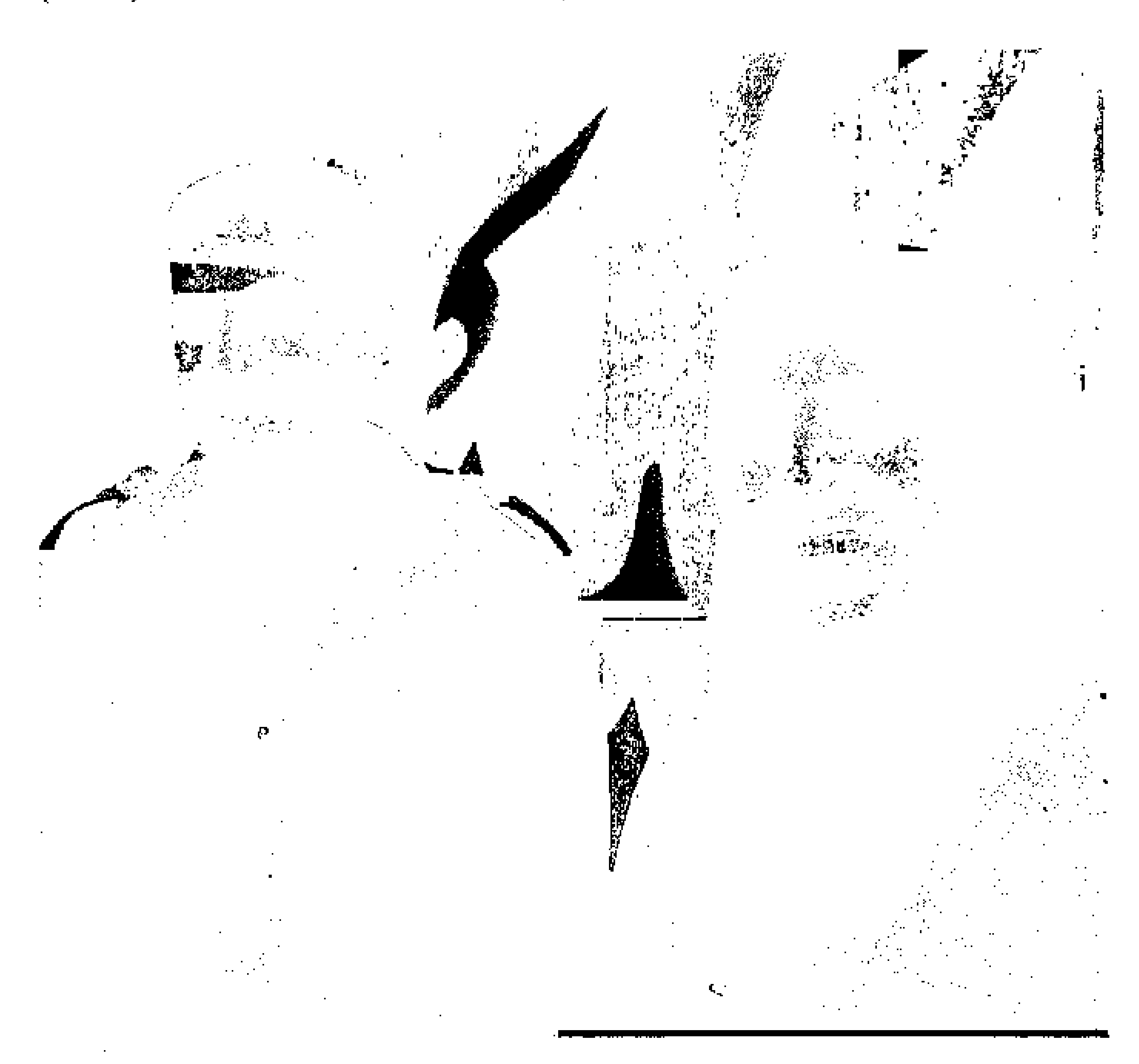
فريق لاعبات الهوكى الإيرانيات، فى زيهن الإسلامى، قبل المباراة، ١٩٩٥
(الصورة السفلى)

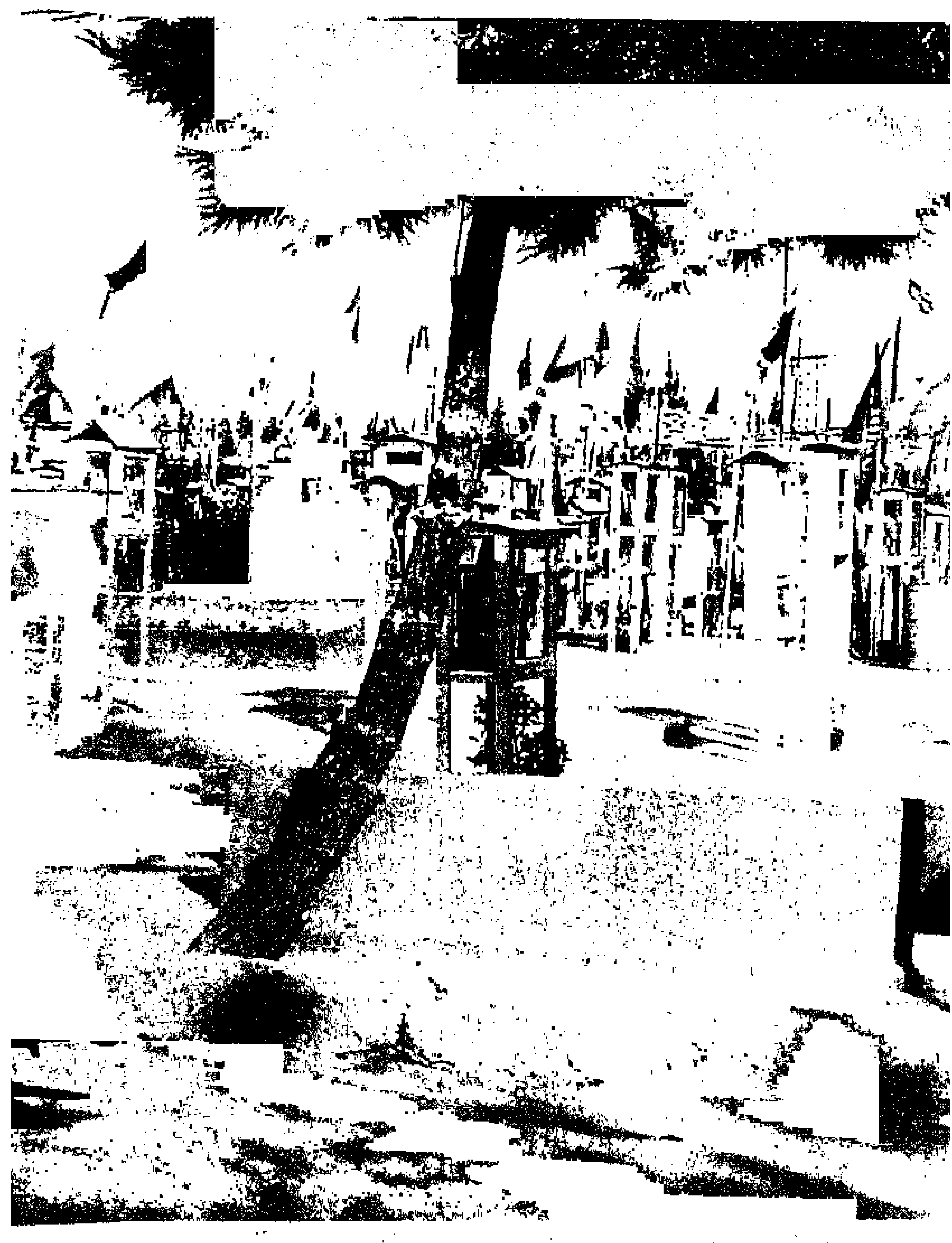


كثير من المهن مفتوحة أمام المرأة الإيرانية، مثل مصورة التليفزيون هذه، ١٩٩٧.



دليلاى أثناء أول تحقيق صحفى أقوم به فى إيران بعد الثورة، ١٩٨٥ (المؤلفة)





ملات يعبرون مدافن بيشي زهرة الهائلة قرب طهران.. التقطت الصورة في عام ١٩٨٥ أثناء الحرب الإير
العراقية، وترفرف الرايات على القبور، تحمل كل منها صورة شهيد من شهداء الحرب أو الثورة.

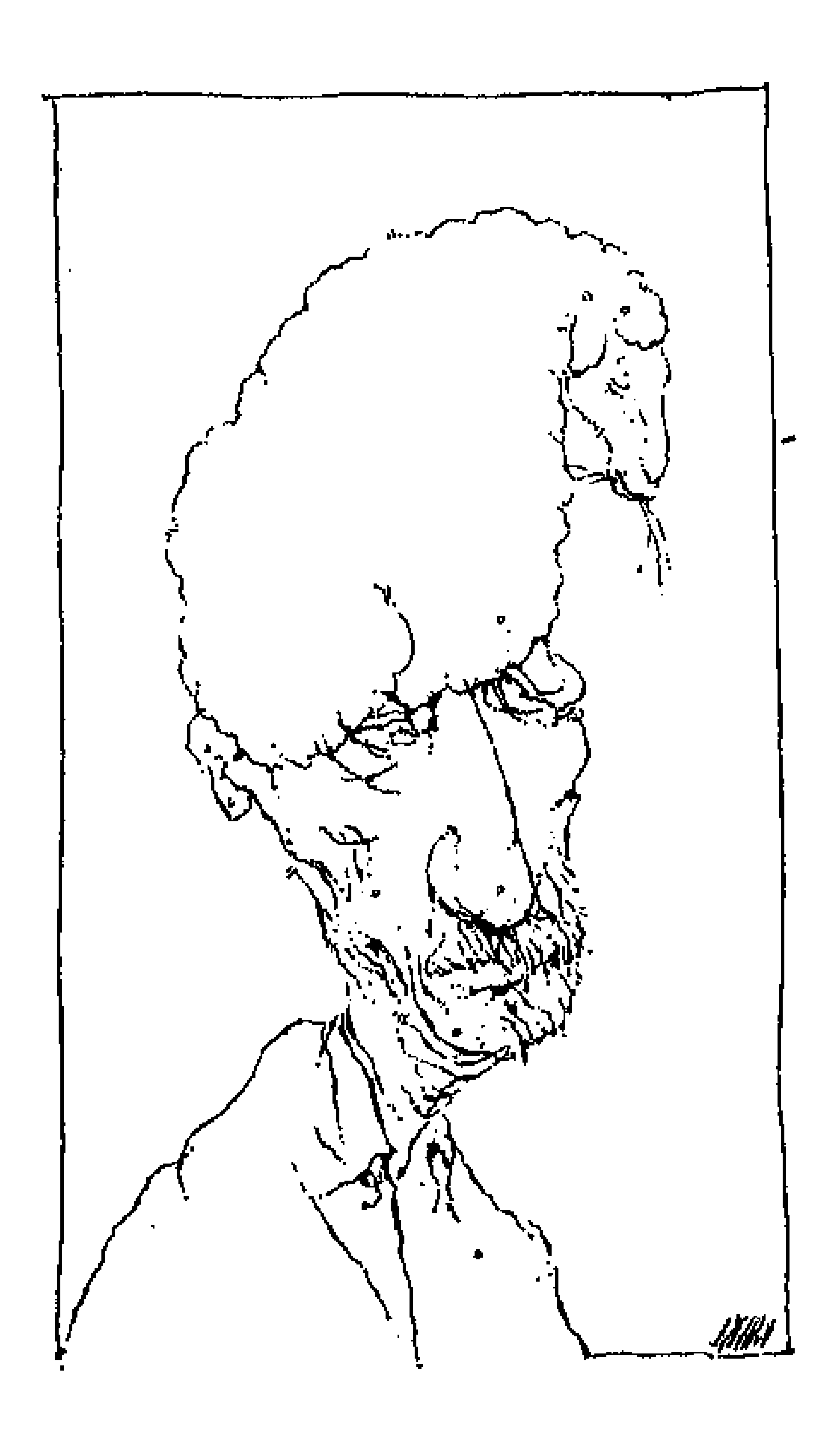


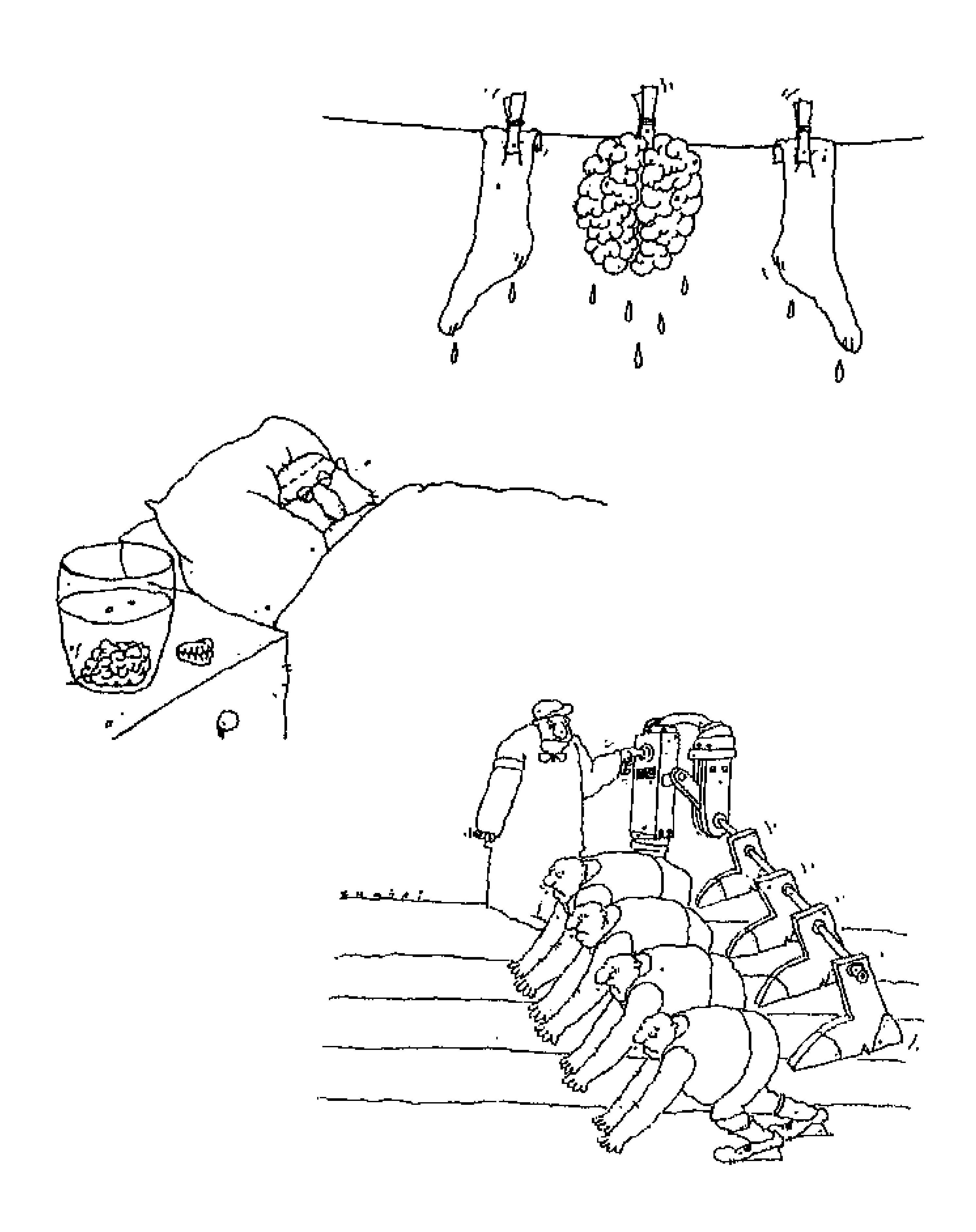


والدان يفيضان رقة وحناناً. الصورة في الصفحة اليمنى: في طهران عام ١٩٩٧،
الصورة السفلى: في أصفهان عام ١٩٩٧، الصورة العليا: لافتة منصوبة في أحد شوارع
طهران تقول «طفلان فقط.. تصبح حياتك سعيدة!»



بعض رسوم مسعود شوجاى طاباطاباى الشهير، رئيس تحرير مجلة «كايهام كاريكاتير» («كاريكاتير العالم» بالفارسية)، فى طهران. ولا تقتصر هذه المجلة على المواهب المحلية، إذ تستقبل صفحاتها فنانين أجانب، وخاصة من البلدان العربية، كما تنظم المجلة دورياً فى العاصمة مسابقات ومهرجانات دولية تعرض صوراً كاريكاتيرية ورسوماً من كل أنحاء العالم حول موضوع معين.

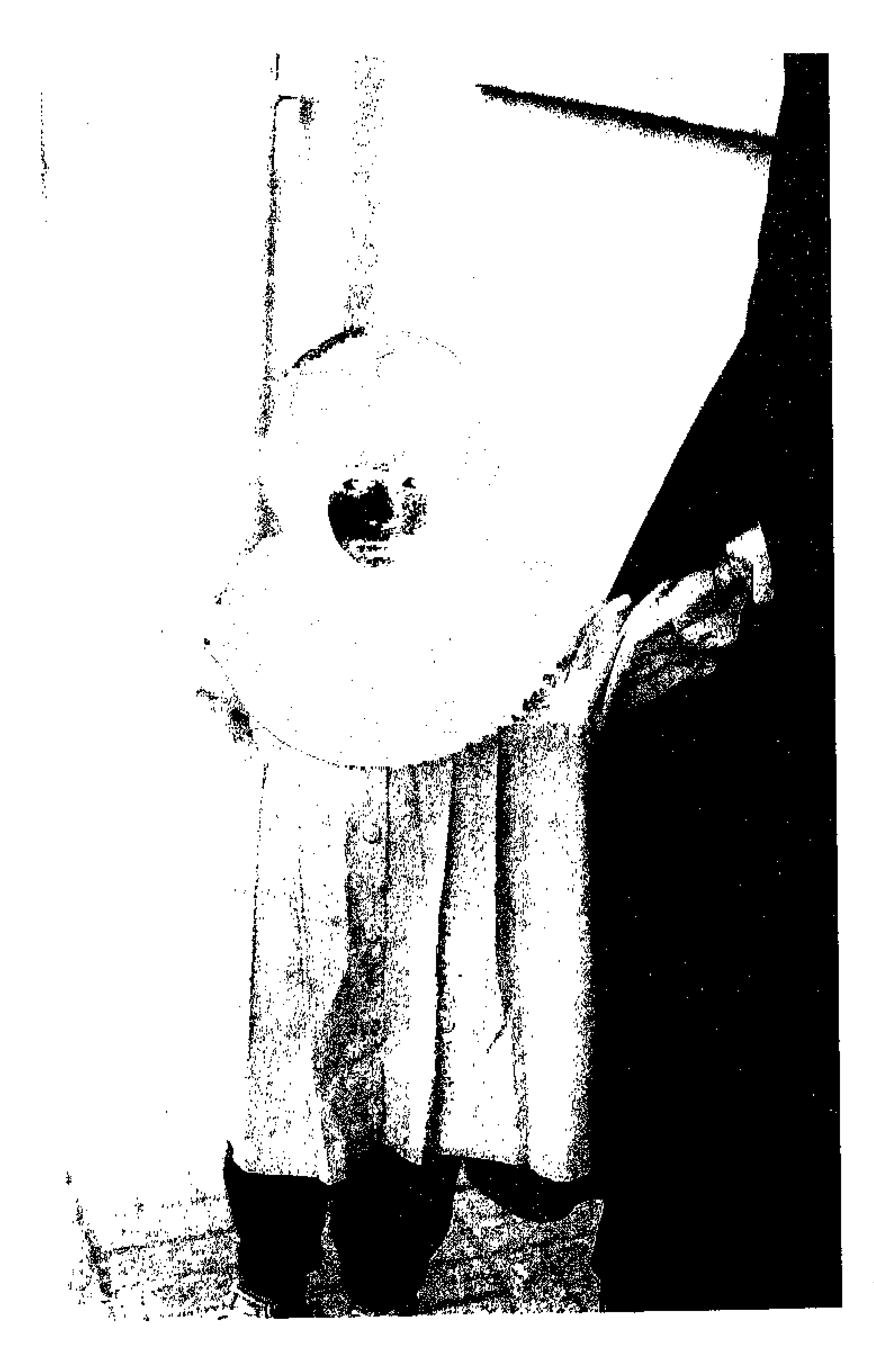




جلسة عائلية في منزل رسام الكاريكاتير شوجاى طاباطاباى (انظر الصفحات السابقة).







الصفحة إلى اليمين: بنت صغيرة تمسك بيد أمها، التقطت هذه الصورة في عام ١٩٩٧ في مدينة «مشهد» المقدسة شمال إيران.

الصورة إلى أسفل التقطت في عام ١٩٨٥: تلاميذ وتلميذات في رحلة إلى مدافن الشهداء في بيشتي زهرة قرب طهران، حيث يرقد الآن أيضاً الإمام الخميني.



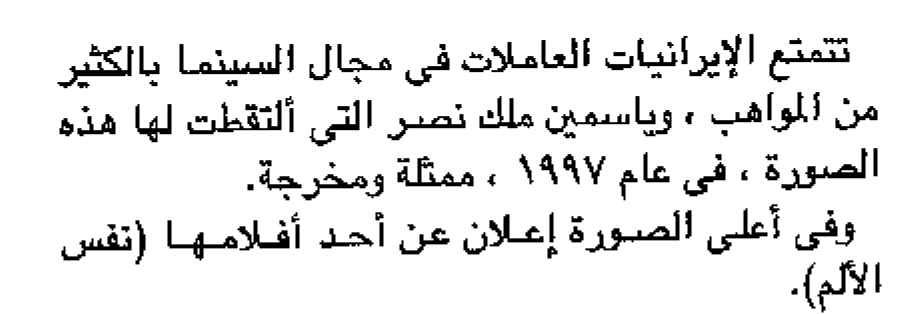
صـيف عـام ١٩٩٧، اثنـان من المارة يتناولان (الآيس كـريم) أمـام لوحـة تبين الإمـام الخميني فى فراش مرضـه قبل الوفاة. صـورة التقطت فى مدينة مشـهد المقدسـة شمال إيران.



الإمام الخمينى مع كبير الأساقفة الأرمن أرتاك مانوكيان فى عام ١٩٧٩.



The Common Plight
A Film by Yassamin Malek Nasr



تتمتع الإيرانيات العاملات في مجال السينما بالكثير من المواهب ، وياسمين ملك نصر التى ألتقطت لها هذه الصورة ، في عام ١٩٩٧ ، ممثلة ومخرجة.
وفي أعلى الصورة إعلان عن أحد أفلامها (نفس الألم).



ـ سيكون هذا المركز هو ذاكرتنا، وترجع فكرة إقامته إلى عدد من الصحفيين الذين قاموا مثلي بتغطية الجبهة ضد العراق.

وسرهانغي واحد من المراسلين الحربيين الذين تلح عليهم الحرب، ويرتبطون معها ـ على شاكلة غيره من البشر، صحفيين أو غير صحفيين ـ بعلاقات ملتبسة، فهو يقول إنه يكرها:

ـ لا يحب الحرب إلا إنسان شاذ...

لكنه يبدى مع ذلك انبهاره:

ـ ... فالمرء يرحل، ويغير حياته وقواعدها، ويحس بالالتحام والتجاوز، تصورى أننى رأيت أناساً لم يمسكوا أبداً بقلم يسطرون فجأة أشعاراً على أكمام حلتهم العسكرية!

ثم يكشف سرهانغي أمامي حقيقة من المؤسف أنها معروفة جيداً، ومن الأسف أنها حقيقة كلية، وهي أن ثقافة الحرب تبيع جيداً.

ـ فكل هذه الكتب عن جهادنا ضد العراق يطلبها الجمهور بشدة، لقد نشر مركزنا حتى الآن نحو خمسين كتاباً، بمتوسط توزيع للطبعة الأولى ستة آلاف نسخة.

أهذا صحيح في الجانب الآخر؟ في بغداد؟ قال سرهانغي إنه لا يعرف، لكنه أسرع ليقول فوراً إنهم فى طهران لا ينسون العدو العراقى القديم وماذا يحكى بدوره.

ـ وعلى أى حال فإن نصف المأساة من نصيبهم، ولهذا فإننا نعطيهم الكلمة. كلا، كلا، إننا لا نخشى على أمنهم، فحين ننشر شهاداتهم نوقعها دائماً تقريباً باسم مستعار، فمن واجبنا أن نغطى هؤلاء الرجال الذين أولونا ثقتهم...

... والذين كثيراً ما اعتنقوا أيديولوجية جمهوريتنا الإسلامية ـ لكن هذا ما لم يقله لى سرهانغي، فوفقاً لما تشمل هذه الاعترافات الجميع: من جنود عاديين أميين سجلت اعترافاتهم على المسجلات، وفنانين وأطباء وحتى أحد الجنرالات والغالبية العظمى من هذه القصص جمعت من بين الأسرى العراقيين المحتجزين في إيران.

والحق أن سنوات وسنوات فى المعسكر تترك لك متسعاً من وقت الفراغ.

«أنا أهدم
بيت ريجان»

حوليات وروايات وقصائد.. ولدى المركز الإيرانى لأدب الحرب كذلك كُتّاب أجانب، وخاصة من الغرب. فالحق أن أدب الحرب - شأن حماقاتها - ليست له حدود.

- كل هؤلاء الكُتّاب عرفوا الحرب كما عرفناها، وعانوا ظلها الذى يرزح فوقك بقية حياتك... وتلك الأشياء التى لا يستطيع أحد حولك أن يفهمها... لقد عرفوا جيداً كيف يقولونها.

وذاكرة المرأة؟

- لنسائنا بدورهن قصصهن، وهذا طبيعى، وقدخصصنا لهم أربعة من كتبنا، الممرضات، والصحفيات، وكثيرات منهن قد أسرهن العدو، وأبقاهن أسرى... على أن النساء لم يحاربن والسلاح فى أيديهن.

ربما لم يكن السلاح فى أيديهن، وإن تعارض هذا مع الصور الدعائية لفتيات يحملن المدافع الرشاشة، ويرتدين الشادور كأنه راية، إلا أن هذا لا يمنع كثيراً من الإيرانيات قد قاتلن، وإنما بطريقتهن الخاصة، فى الكواليس. وإذا كنت أتحدث كثيراً عن النساء فى هذا الكتاب، فلأنى واحدة منهن، امرأة، ولأن السلطات الإسلامية قد وجهتنى بالطبع إليهن. يالهؤلاء السيدات - الحائكات فى الإدارات المساعدة للجيش! العاملات بالإبرة نهاراً وليلاً، أو منكبات على ماكينات سنجر العتيقة. وفى قلب الحرب انتحت بى بعنف واحدة منهن، معتقدة أننى مبعوثة للشيطان الأمريكى الأكبر، وصاحت بى وهى تضغط بعنف على دواسة ماكينتها:

- انظرى! انظرى أيتها الأمريكية. إننى فى كل دفعة بقدمى أهدم قصر ريجان.

الساحرات

ولا يمكن أن أنسى كذلك سيدات غار الساحرات كما تستعيدهن ذاكرتي عام ١٩٨٥ ، ولم تكن طهران ذلك اليوم في حرب فقط بل كانت في الشتاء حين يتطابق عرى الأشجار واكتئاب البشر ليضفيا على الناظرين شعوراً غريباً بأنهم يرون مدينة مصورة بالأبيض والأسود .

ويقع غار الساحرات في حي شعبي ، في قبو مجموعة من المساجد تحت البناء تسمى حميدنيان ، وما إن تجاوزنا الباب المؤدي إلى الكهف حتى تصاعدت أمامنا من رطوبة السلم البارد أصوات شديدة الحدة . وفي الهواء كانت تفوح رائحة الكراملة .

كي يموتوا والحلاوة في أفواههم

مشهد من الليل واللهيب ، فالكهف يأوي غرباناً لامعة تتشبث باليدين بعصي هائلة ، وتقلب في حركة دائرية واسعة عصيدة غليظة من المولاس في قدور ضخمة تشتعل تحتها باستمرار نار كالجحيم .

وحين تترك النسوة عصيهن لحظة فما ذلك إلا ليتحولن إلى دراويش يدرن حول أنفسهن ، يدرن ويدرن ، ويدرن ، وهن يرفعن أكواباً صغيرة من الشاى ، في سلسلة غير مقطوعة من الأنخاب الساخنة في سبيل الله .

الله ! الله ! الله ! والعرق الذى يتصبب على الجباه ، ويسيل بين التجاعيد ، ويعكس حمرة اللهب ، إنهن نساء بسيطات ، أحس بهن يتحولن ، وقد انتشين بحماسة الوجود ، ربما للمرة الأولى في حياتهن ، كم هي جميلة الحروب والثورة التي تتيح للنساء لحظات من الحرية . لكي تحيلهن بعد ذلك ، ما أن تنتهي المعارك ،

إلي مكانهن الأصلي: الخزانة. وتمحي قصتهن من التاريخ، ثم يحل النسيان سريعاً.

وكم هي ملحة رائحة الكراميلا. ولكن لماذا كل هذه العذوبة؟

ـ من أجل شهدائنا! وأفضل صنف للصفوف الأولى!

إنها في الثالثة والخمسين.. زهرة محمودى ذات الصوت القوى والاستدارات البارزة، الرئيسة بلا منازع لمجموعة صانعات الحلوى، وهي التى تصحب مواكب الكراميلا بانتظام مرتين في الشهر إلى الجبهة.. طناً ونصف طن من الحلوى على الأقل منذ خمسة عشر يوماً فقط.

ـ وهكذا يموت أولادنا ومذاق الحلاوة في أفواههم.

السيدة القائدة

تستقل الهيلوكبتر

وتستطيع زهرة ـ عندما يتعلق الأمر بتدليل محمييها، أولادها كما تسميهم ـ أن تتصدى حتى للقنابل، فالأمر لا يتعلق بالكارميلا فحسب، فالمؤمنون يتبرعون بسخاء للحرب المقدسة. ألف زوج من الأحذية فى رحلتها الأخيرة، والوسائد والأغطية والمدافيء والأدوية، تحمل (الباسيوناريا) كل شيء في أمتعتها. وموضع اعتزازها الكبير؟ كبائن (الدش) المتنقلة.

ـ هذا شيء رائع في الصحراء. إنها تركب وتفك فى الموقع، ويأتى الماء الساخن فى الصهاريج. وبفضل أجهزة لتدفئة المياه بالنفط يستطيع أولادى أن يوفروا لكل واحد حماماً ساخناً جيداً. إن أولادى يذهبون إلى الفردوس نظيفين!

لكم هى مثيرة زهرة، التى مضى البعض إلى حد تسميتها القائدة رمزاً للاحترام. وبعد ثلاثة عشر عاماً كنت أمر بالصدفة أمام مسجد حميديان

بشارع راى ففكرت فيها ، هل عادت دون تذمر إلى عالم النساء المغلق؟ وعادت إلى بصرى ثانية وهى تهبط ، فى عظمة واعتزاز ، من دبابة أو طائرة هيلوكبتر ، ويكاد الهواء الذى يملأ شادورها يحملها .

عراقى
غامض

ـ بالأحضان ! ألم تكفنا الحروب ؟

إنه لأمر مذهل هذا المظهر التلقائى للصداقة بين إيرانى وعراقى ، وهو فضلاً عن ذلك مجهول ، والأكثر إثارة للدهشة أنه يصدر عن مصور إيرانى غطى مراراً خطوط الجبهة الأولى . وقد احتفظ فرهاد كريمى من هذه الأيام الرهيبة بارتعاشة عصبية واستثارة دائمة ، لكنه لم يفقد مع ذلك إنسانيته .

كنا قد قابلنا معاً هذا الصديق العراقى ، هو وأنا ، أثناء زيارة للمتحف الوطنى للفن الإيرانى فى طهران . وكان هذا بعد ستة أشهر من حرب الخليج فى سبتمبر ١٩٩١ . وكان فرهاد دليلى ونحن نسير وأنفانا ملتصقان بالحائط نتأمل بإعجاب أروع المنمنمات الفارسية . «لقد رسمت بشعرتى قطة» هكذا قال لى فرهاد كخبير وابن مخلص لأبيه ، الذى ليس سوى على كريمى فنان المنمنمات المعاصر الشهير . «انظرى يا سيدتى ، إن المرء يرى كل رمش وكل شعرة من شعرات اللحية» .

كان العراقى ينحنى نحونا فى أدب ، لا تفوته كلمة من حديثنا . وأنا أقول العراقى لسبب بسيط هو أنه رفض أن يذكر لى اسمه حتى الدقيقة الأخيرة ، حتى حين اعتقدت بسذاجة ، ونحن نجلس متواجهين فى ركن معتم من المقهى الذى اختاره كثير من مواطنيه مقراً عاماً لهم ، أننى قد كسبت ثقته ، فكل ما عرفته هو أن هذا الرجل الوسيم المهذب ، ذا الصوت المتحذلق الذى يتحدث بإنجليزية أكسفوردية ، هو سليل إحدى عائلات بغداد الكبيرة القديمة .

أننى أمتلك أربعة منازل هناك، وأستطيع أن أعيش ملكاً.. ورغم هذا فقد هربت.. فكل شيء أفضل من رعب الطرقات على بابك عند الفجر، إن صدام حسين وحش بشع.

أما أن دكتاتور بغداد يضطهد مواطنيه فهو أمر لا ينكره أحد، وأما أن الحصار الأمريكي البشع المفروض على العراق منذ حرب الخليج يدفع المزيد والمزيد من البؤساء إلى المنفى فهذا أمر واضح. إلا أن المرء يمكن أن يشعر بالدهشة من أن يختار العراقيون، بعد ثماني سنوات من الحرب وملايين القتلى، إيران بالتحديد ليلجأوا إليها، لكن فى دهشتنا هذه نسياناً لأن نصف العراقيين من الشيعة، وأن ثمة رابطة تنبض بينهم وبين الإيرانيين تتجاوز كل سلاح.

أخى كان يحلم بحكومة إسلامية

وفى لقائنا الثانى جاء الأرستقراطى العراقى وبصحبته شاب أشعث بقدر ما كان هو متأنقاً.

- إنه أحد مواطنى الذى وصل لتوه من مخيم للاجئين العراقيين فى الأراضى الإيرانية، وقد صحبته لك لكى تصغى إليه، ولكى تكونى فكرة عن عراق صدام حسين...

وقد طلب الشاب الأشعث بدوره ألا يكشف عن اسمه.

- كنا فى عام ١٩٨٠، وكان اثنان من إخوتى فى المسجد يتناقشان مع الآخرين، واندس جواسيس بينهم وسمعوا كل شيء. كان شقيقاى يحلمان بحكومة إسلامية.. إننا يجب أن نتخلص من هذا الملحد صدام.. وقد أخذتهما الشرطة ولم نرهما بعد ذلك أبداً.. كما ألقى القبض على أخ ثالث لى، وعذبوه، وعلقوه من قدميه فى السقف. ومات أبى حزناً، ولم تعد أمى تبتسم، وقد هربنا معاً أنا وهى،

وهى تنتظرنى فى مخيم اللاجئين، ولن نعود إلى العراق أبداً، وإن كان صدام يتظاهر بأنه قد عفا عنا لكى يدفعنا إلى العودة.

ومر بيده على عينيه.

- لقد قص علىّ رجالنا الذين حاربوا حرس صدام فى البصرة ونجحوا فى فتح السجون كل شىء. شىء رهيب، رجال مغللون طالت أظافرهم كشعورهم.. رجال أصيبوا بالعمى، والبعض مسجونون هناك منذ أمد بعيد حتى أنهم لم يعرفوا أن شخصاً يدعى صدام حسين قد وصل إلى السلطة.

وصول ليلى إلى طهران

ديسمبر ١٩٩٧ ... رحلة لوفتهانزا إلى طهران تحفل بجميلات معطرات يرتدين معاطف طويلة راقية، ويحملن حقائب (فويتون) الفاخرة، والأوشحة ماركة هرميس فى متناول اليد، أى فى متناول الرأس، تحوطاً للهبوط (أما فى رحلة لوفتهانزا من طهران إلى فرانكفورت فإن الأمور تمضى على العكس تماماً، فالأوشحة تطير فوق المقاعد حال الإقلاع).

وبعد عبور الجمارك تم التفتيش، تغوص الجميلات بصحبة أزواجهن وجبال حقائبهن على الفور إلى سياراتهن المترفة التى تنتظرهن، والتى تقودهن إلى النهاية، بعد أن تعبر المدينة بسرعة، إلى دورهن، إلى أمان بيوتهن.

وبقدر ما أذكر فإن عمليات هبوط القادمين من أوربا تجرى فى قلب الليل، وربما تكون عمليات التفتيش قد خفت عن سنوات الثورة الأولى، ورجال الجمارك أحياناً ما يهدونى ابتسامة، إلا أن الصدمة تظل دائماً نفسها حين أرى، وأنا أدفع أمتعتى على العربة، الجموع التى تسرع خلف الحاجز: هذا السيل من النساء يرتدين السواد، والذى لم أستطع أبداً أن أعتاده.

كما أجد على طول الطريق الواسع صوراً عملاقة للثنائي الشهير الخميني ـ خامنئي، وقد سلطت عليهما الأضواء دائماً في احترام. ثم تأتي جولة الجسور والمفارق. وتنتصب طهران ذات العشرة ملايين نسمة في مواجهة السماء. وفي الأسفل تقف بضعة منازل طينية.. نظرات إلى اليسار، ونظرات إلى اليمين، ومن رحلة إلى أخرى لم تغادر المدينة أبداً صور شهداء الإسلام الضخمة. وهنا وهناك تومض مصابيح المقاهي المفتوحة حتى في الليل. ثم تنكشف أمام التاكسي شوارع فسيحة تحف بها حدائق العاصمة، المدينة الكبيرة والحديثة شبه الغربية، حلم شاه اختفى وتركها مزروعة هنا وقد أضاعت روحها الفارسية.

وطهران نائمة، وفي كل لقاء ليلي كنت ـ ولا أعرف لماذا ـ أفكر في الرجال والنساء الذين ينامون هناك، أو لا ينامون وإنما يتقلبون على جنوبهم في أحلام كوابيسهم.

فهناك.. يقوم إيفين، السجن السياسي الذي أقيم على سفح الجبل شمال المدينة.. إيفين الذي يحيط سوره الذي لا ينتهي بمباني السجن إحاطة الجبل بعنق المشنوق.

إلى السجن

١٩٨٥، والسماء لا تلقي بالاً لمظاهر العنف السوداء في أيام الثورة والحرب، وشمسها تضيء نهاراً بارداً أزرق من أيام ديسمبر، غارقاً في هواء نقي شفاف كأنما صقله الله.

والطريق يلتوي كالثعبان منحدراً، محاطاً بأشجار صنوبر زرعت حديثاً، ومواقع البناء في كل مكان.. إن طهران تتضخم، ويتولد في هذه الأرض المليئة بالحصى (موزايكو) معقد من المباني البيضاء وناطحات السحاب، وعلى واجهات أحد المباني، صورة الخميني، يبد وفيها ـ بخدعة من خدع البصر ـ كأنه يخرج بشخصه من ثلوج جبال البورز التي تسد قممها الآفاق.

والسيارة تنطلق، وأنا أقلب صفحات «صورة إيفين» الذى أعطته لى هذا الصباح وزارة الإرشاد الإسلامى تحضيراً لزيارتى. ويشبه هذا التقرير عن سجون مكتب المدعى العام للثورة الإسلامية، كتيباً سياحياً ملوناً على ورق مصقول. يصور إيفين باعتباره «سجناً نموذجياً لإعادة التربية الروحية لإخوتنا وأخواتنا الضالين»، والحق أن النصوص التى تدعمها الصور، والمترجمة إلى الفرنسية والإنجليزية، نصوص تربوية فى حد ذاتها، مثل هؤلاء المسجونين الذين أعيدت تربيتهم وهم «يبلبطون» سعداء فى حوض سباحة «تحت أنظار مجموعة من الطلاب الإيرانيين المستنيرين القادمين من الخارج»، والذين «سيحملون معهم إلى العالم كله حين يعودون فرحة المسجونين التائبين ونقاءهم الروحى».

ويسود التوتر.. إننا نقترب.. ويصمت سعيد وبسام دليلاى الرسميان، من إخوة وحراس الثورة. كما تصمت أيضاً أختى الدليلة الجالسة بجوارى على المقعد الخلفى.

وتدور السيارة إلى اليسار، وترتقى المنحدر، وتسير بطول جدار، ثم تقف أخيراً أمام باب صغير ليس فيه ما يميزه. وفى اللحظة نفسها يبرز منه شخص مغطى بالشادور، يتوقف عند العتبة... وتتردد.. وفى الجانب الآخر من الطريق يقف رجل أشيب مترقباً مستنداً بظهره إلى هيكل سيارة. وخطا ثلاث خطوات.. هل هى هذه؟ أهى حقاً؟ كيف له أن يعرف أمام هذا الزى... ورأته، وعرفته، وتبينها، وجرت نحوه، طار وطارت حولها الأوشحة السوداء، وقبلها بجنون، وغاصت فى السيارة التى انطلقت كالبرق.

وعلق سعيد قائلاً «إنها سجينة أطلقوا سراحها». والغريب أن مرافقى كانوا منفعلين للغاية.

وفحص إخوة آخرون فى نفس مظهر الإهمال، ولحاهم لم تحلق منذ ثمانية أيام. يرتدون (جاكتا) فوق سراويل رثة تصاريحنا ثم سبقونا، ومدافعهم الرشاشة على أكتفاهم، فى تيه منه الممرات الضيقة التى تقود إلى فناء السجن الداخلى.

وتحت عدة أحواض من الزهور تتلوى تحت برد الشتاء.

ـ الصيف يا سيدتى، ينبت زهوراً بلون دماء شهدائنا.

كلهم سياسيون

فى قاعة الاجتماعات فى السجن كان نبات أخضر يذبل فى أحد الأركان. وتبدو على رضا فكور مدير سجن إيفين سيماء مهنته، وهو رجل فى نحو الأربعين، ذو وجه مستدير فيه أثر ندبة وعينان باردتان نفاذتان، وارتفع صرير المقاعد، وجلسنا جميعاً حول مائدة زجاجية، يتوجها دورق مياه ومصحف، والشك يحوم فى الجو من كلا الجانبين.

وحولنا انتشرت اللحى. وهبط طبق من اليوسفى على المائدة، وأمسكت آلياً بواحدة بينما استمررت فى الكتابة بيدى اليمنى، وأخذت أدون وأدون ملاحظاتي، والكتيب يقول إن الجميع فى إيفين يعاملون المسجونين التائبين معاملة طيبة. وها أنا الآن هنا أرى المكان ـ أو لعلى لا أرى حقيقته ـ وما ينبغى أن يفوتنى شيءمن تفاصيله.

وفتح الباب فجأة، واندفع منه سيل من الرجال أحاطونا بسرعة وهم يحملون كاميرات الفيديو وآلات التصوير العادية والعدسات المقربة والفلاشات ومكبرات الصوت.

وبعد تحضير على هذا النحو بدأ رضا فكور يتفاخر بسجنه.

ـ الحراس والمساجين كلهم ـ باستثناءات نادرة ـ دون الثلاثين؛ فالشباب هو المستقبل. .أليس كذلك؟ وكل ما علينا هو أن نربيهم.إن لدينا ألفى مسجون سياسى، بينهم إرهابيون وجواسيس، وكل الشراذم المعادية للثورة ممثلة لدينا. وبالطبع فليسوا جميعاً ممن شاركوا فى العمليات المباشرة، لكن هذا لا يمنع أن أيديهم ـ بشكل ما ـ ملوثة بالدماء.

ـ وماذا عن العقوبات؟

ـ من ستة شهور إلى السجن المؤبد.. ولكن لا أهمية لهذا.

ـ ماذا ؟

ـ أنت لا تفهمين يا سيدتي فنضالنا ليس سياسياً بالمعنى الضيق للكلمة.

ـ أوه !

ـ نعم. إنه نضال أيديولوجي يرمي إلى أن نعود بإخوتنا وأخواتنا إلى الطريق القويم.

ـ حسناً !

ـ ودروس التربية الإسلامية تستمر أربع ساعات يومياً، نستخدم فيها الفيديو كثيراً، ويتأتى مسئول عن وزارة العدل الإسلامية مرتين في الشهر ليلتقي بالمسجونين، الذين يمكن أن يوجهوا له أي سؤال يخطر بأذهانهم، ونحن كرماء جداً في إيفين، وأحياناً ما نفرج عن المسجونين بكلمة شرف بضع ساعات أو بضعة أيام بل حتى شهراً. وتصوري أن أقل من واحد في المائة هم الذين استغلوا ذلك ولاذوا بالفرار ! وهذا ما يبين لك قوة الإسلام !

كانت أنوار الكشافات المسلطة عليّ دائماً تخطف بصري، فأخذت أحمي وجهي بيد، بينما أمسك القلم باليد الأخرى.

ـ إن مساجيننا يعلمون، ويحصلون على أجر، وبعضهم يرسل هذا الأجر إلى أهله، وكثيرون يتبرعون به لدعم مجهودنا الحربي ضد العراق.

أي نجاح عظيم حققه إيفين.. كل إرهابيي الأمس هؤلاء الذين تحولوا إلى أنصار.. ترى هل يصل بهم الأمر إلى حد التطوع ؟

ـ كلا... كما أن وضعهم طالما ظلوا هنا يظل وضع المساجين، ومحظور عليهم أن يقاتلوا... لكننا نصحب مجموعات صغيرة منهم إلى الجبهة من فترة إلى أخرى.. مما يبذر في رءوسهم أفكاراً طيبة.

وأكد لي المدير العزيز أنه يعرف كثيراً من أعداء الثورة التائبين الذين ما أن يفرج عنهم حتى يسرعوا بالانطواء تحت راية الإسلام وتحت نيران العراق.

ولكن فلنسرع.. إن أمامنا كثيراً مما يجب أن نراه. وطاف بنا فكور

وصنائعه السجن بسرعة بالغة... والكاميرات تتبعنا.. وظهر مكبر صوت صغير تحت أنفي يحمله رجل رشيق أخذ يتبعني أينما ذهبت.

وتوقفنا عند مدرج كبير، أخذ مسجونون ـ ممثلون يؤدون أمامي وحدى قصة ذلك البائس ـ سلمان الفارسي ـ الذى ضل طريقه، لكنه بعد الكثير من المغامرات وجد في النهاية ـ بفضل الله ـ طريق الإسلام.

وعلى مسافة أبعد قليلاً، فى نهاية الممر، مشهد مسرحي آخر... كان مسجونون آخرون يهتفون وقبضاتهم مشرعة بما لقنوه من شعارات معادية لأمريكا. وانتهزت فرصة الصخب وتبادلت بضع همسات بالإنكليزية مع شاب نحيل، يرتدى (بلوفراً) أبيض برقبة.. وهمس لى وعيناه متعلقتان بعيني.

ـ إنهم يتهمونني بأنني ماركسي.

غير أن رضا فكور ظل يتابع (السيناريو) الذى يؤديه.

ـ حسناً يا مساجيني! هل تعانون من الجوع؟ هل تساء معاملتكم؟ هل تعذبون؟

وكانت سيماء الصحة تبدو فعلاً على (العينة) التى قدمها لى.. أناس عاديون جداً، ليس على وجوههم ما يكشف شيئاً عما يدور حقاً خلف هذه الجدران، كل هذه الجدران، فى كل مكان.

كل شيء

هادئ فى إيفين

قيل لى «لأنك امرأة فستزورين قسم النساء هناك، وسترين ورشة أخواتنا».. حسناً، هاهن هنا، أخواتهم، أخواتي، أخوات بائسات، غارقات حتى عيونهن في

حجابهن، ورءوسهن منحنية على آلات الحياكة. وبإشارة من الحارس ترتفع معا: «الموت لأمريكا»... نفس الشعارات التي سمعناها منذ فترة، وإنما تعلو بها هذه المرة أصوات نسائية.

قاعة ضخمة مضاءة بالنيون، وتلك الكتل السوداء مصطفة في الممر. مشهد أشبه بروايات أورويل. كم عددهن؟ ربما نحو مائة، وما متوسط أعمارهن؟ بين العشرين والخامسة والعشرين.

ـ من هنا يا سيدتي!

خمسة وعشرون عاماً، هذه بالدقة هو عمر ميرزاد نازيري، التي اقتادوني إليها بخطوات سريعة «لأنها تتحدث الإنجليزية». ووجهها الصبوح نصف مختبيء تحت الحجاب، وعيناها تنظران إلى أسفل، وصوتها رتيب:

«كنت وزوجي عضوين في اتحاد الطلبة الإيرانيين في الولايات المتحدة. لم أكن أحب الشاه، وقد عدت مفعمة بالأمل بعد قيام الثورة، وانضممنا إلى الحزب الشيوعي، وكنا نعمل في أحد المصانع حين ألقوا القبض علينا، وحكم عليّ بالسجن تسع سنوات ـ قضيت منها ثلاث سنوات، نعم إن لنا طفلاً، نعم إن زوجي هنا أيضاً في إيفين.

ـ هل ترينه أحياناً؟

ـ مرة في الشهر، وبالطبع لا أستطيع أن أضمه بين ذراعي، أو يحدث شيئاً من هذا القبيل...

وضحكة صغيرة...

ـ إننا نتحدث قليلاً...

وألقت ميرزاد نظرة سريعة على الكاميرا، سريعة جداً، ثم استطردت دون أن تقطع حديثها:

ـ ولكن لا تصدقي ما يقولون! إننا مرتاحات هنا... لقد قالوا لي «إنهم سيعذبونك في إيفين»، ولم يكن هذا صحيحاً!

وبعد هذه الاندفاعة واصلت ميرزاد قصتها، كيف تستيقظ في الصباح في

الزنزانة التي تقتسمها مع خمس وعشرين امرأة، وعملها في الورشة، ودراستها للإسلام، وقراءتها للصحف الإسلامية، ولكتب العلوم الإسلامية، هل خرجت من السجن أثناء هذه السنوات الثلاث؟

ـ في الصيف الماضي أخذتنا الأخوات إلى مسبح فانيك، غير بعيد من هنا.

للسباحة؟ بالشادور؟

ـ طبعاً لا.. بالمايوهات، ألم أقل لك أننا مرتاحات هنا!

قائدة

الكوماندوز

لم أكد التقط أنفاسي حتى جلبوا لي سجنيتين أخريين، وأمروهما بأن تحكيا لي، أو بالأحرى تتلوا عليّ، قصتهما.

كانتا تتحدثان بصوت رتيب، وعيونهما مثبتة على الأرض.

حين ألقي القبض على مريم كانت قد أنهت لتوها دراستها الثانوية وهالة قد بدأت بدراسة الطب، وبعد أن أفلتتا من حكم الإعدام خفف الحكم إلى خمسة عشر عاماً من السجن، قضيتا منها أربعة أعوام بالفعل في إيفين، كانت الاثنتان عضوين في مجاهدي خلق، وهي حركة معارضة ولدت أيام الشاه، وشهدت ذروة مجدها في بداية الثورة، قبل أن يكتسحها الخومينيون في النهاية.

كانت مريم قائدة فريق كوماندوز.. لا أقل.. أما هالة فإذا كانت السلطات قد حرصت على أن ترينى إياها فلأنها شاركت موجان هومايونفار الشهيرة مغامراتها، ثم زنزاتها فيما بعد، وكان الحكم قد صدر على موجان بالسجن خمسة عشر عاماً، ولكن أفرج عنها بعد عامين «رحمة بإعاقتها» حسبما يؤكدون لي. وقد أصرت موجان دائماً، كما فعلت أمام لجنة حقوق الإنسان في جنيف، على أنها إنما فقدت ساقها بفعل جلادي إيفين.

أما اليوم فإن صديقتها هالة، الواقفة بحذاء الحائط، تحت نظرات المدير والحراس، وضوء الكشاف الساطع يعمي بصرها، ويجعلها تبدو أكثر شحوباً وأكثر وهناً، أخذت تتمتم بصوت لا يكاد يسمع في مكبرات الصوت التي يحملها الإخوة:

ـ ذات يوم ونحن وحدنا أسّرت لي موجان أن ساقها كسرت في حادثة سيارة.

ماذا أصدق؟ ومن أصدق؟ هالة ،لكمكنت أحب، لو سمحوا لى، أن أضمك ولو لحظة بين ذراعي.

النافورة

الحمراء القرمزية

١٩٩٧، منذ ما يقرب من عامين لم تعد نافورة الدماء تفيض بين مقابر مدافن الشهداء في بشتي ـ زهرة قرب طهران، فقد أصبح هذا الرمز للدماء التي سالت في سبيل الله، ومن أجل الثورة والحرب، عتيقاً على غير (الموضة). وشارك الصحفيون في ذلك يساندهم فيض من رسائل القراء. والشباب الذين «ضاقوا ذرعاً بالحرب».

وهكذا صمت خرير النافورة.. أما هن فماذا حدث لهن؟ مازالت راسخة في ذهني صورهن، وهن يرتدين الشادور ويعسكرن أمام النافورة. وأعينهن تحدق بثبات في السيل الدامي الذى يتدفق، كما تتدفق دموعهن.

١٩٨٥، كان الشاب الذى يرشدنا، أنا ودليلي، عبر المدافن يبدو لطيفاً بشكل غريب بالنسبة لأحد حراس الثورة.. لطيفاً كذلك الصباح الشتوى الذى تغمره شمس شاحبة. والسلاحف تزحف فى الممرات التي تحيطها أشجار الصنوبر، والغربان تنعق كما تفعل فى كل مكان فى العالم.

كانت بشتي ـ زهرة فى ذلك الحين هي رمز التضحية، مدينة موتى وآلاف الأعلام

ترفرف فوق المقابر، وآلاف من زهور الجلاديوس الحمراء تنتصب كأنها الحراب، وآلاف الصور المحاطة بالزجاج تبدو وكأن عيونها تتابعك.. كم كانوا صغاراً «كتائب عرائس السماء هؤلاء، الذين آثروا الحرب المقدسة على عشق النساء».

وعند مفترق طرق كانت حمرة نافورة الدماء تلتمع. وفى قلب حوض دائرى كبير من الأحجار كان الماء يفيض بقوة قبل أن يهبط فى تثاقل فى عشرات من الشلالات الصغيرة.

ومضى دليلنا فى شرحه «احتجنا إلى جهود كبيرة كى نجد اللون الأحمر الصحيح، فمرة كان برتقالياً أكثر من اللازم، ومرة كان أقرب إلى الزرقة... واستقر اختيارنا فى النهاية على الأحمر القرمزى، وهى مادة تستخدم عادة فى صباغة النسيج، وحتى لا يكون الماء باهتاً، وحتى يشبه الدم حقاً، عليك أن تضع ثلاثمائة جرام على الأقل فى الخزان... وهذا مكلف للغاية».

واختفت المساحة التراجيدية الجادة من على وجهه، وعلت وجهه فجأة غمزة ساخرة:

ـ ذات يوم قلت لأحد الصحفيين الأجانب إن الدم يصل إلى النافورة من خلال شبكة مواسير تأتى مباشرة من المقابر... والغريب أن هذا الأحمق صدقنى».

الدبابات

وحصان أبيض

وفجأة مزقت الصرخات هدوء المدافن المصطنع. صرخات تنبعث من قلب امرأة تتلوى وتدور وتسقط فوق الحجر البارد الذى يفصل جسدها. وحين وقفت فى النهاية بصعوبة، ونفضت بيديها حجابها المغبر، رأيت ملامحها المجهدة وعينيها التائهتين.

ـ قالوا لى إنه أصيب فى رأسه فقلت: وهبت رأسه للإمام على.. قالوا لى إنه أصيب فى قلبه فقلت وهبت قلبه للحسين الشهيد...

وغير بعيد كانت صفية سليمى، أم الشهيد رضا سليمى، تبكى هى الأخرى، وإنما بدون صوت... جلست على حصير بينها وبين الرخام البارد وهى تتمتم:

ـ ... إنى أحســــه... أحس أن ولدى هنا ينتظرنى... وحين ينادينى أجىء دائماً... حتى والجليد يسقط.

وانحنيت إلى جانبها، قرب وجهها، ترى كم تبلغ من العمر؟

ولم تكن هى تعرف، فسألت زوجها الذى كان يكنس القبر:

ـ كم تبلغ عمرى؟

ثم استدارت نحوى قائلة:

ـ يقولون إننى فى الأربعين.

وتنهدت.

ـ أما ابنى فكان فى العشرين.

كان جميلاً هذا الابن، كما يبدو فى الصورة التى تضمها صفية إلى قلبها، محاطة بإطار رقيق.

ـ مضت ثلاث سنوات.. لقد وجدوه بعد أن قتل بكثير.. لكن الله صانه كما ذكر لى الضابط.. واحتفظ ولدى بكل شىء، عينيه وأهدابه وبشرته.. كل شىء! بل لقد كان نائماً ويداه معقودتان على صدره كشهيد حق!

وانحنت صفية، وأخذت تفتش فى كيسها.

ـ أتريدين أن تسمعيه.

ودست شريطاً فى جهاز (كاسيت).

ـ اسمعى صوته! هذا هو الشريط الأخير، لقد أرسله لى قبيل وفاته...

وماذا يقول؟

ـ «أماه... أستطيع الآن أن أموت بسلام بعد أن رأيته!» هذا ما يقوله ابنى... وهو الحقيقة... لقد رآه ولدى، رأى الإمام الغائب يثب بحصانه أمام الدبابات

والمكان يمتلىء بالغبار.

وأمسكت صفية بيديها مصحفاً ثقيلاً موضوعاً إلى جوار باقة من الزهور البلاستيكية، وفتحته عشوائياً، ثم أصلحت نظارتها وتظاهرت بالقراءة:

- انظرى! إنه مكتوب ها هنا، مكتوب أن الإمام يمتطى حصاناً أبيض، ويمسك بيده راية خضراء، راية الإسلام الخضراء.

والتف زوجها بكوفيته وأحزانه، وبقى صامتاً، أما صفية فلم تصمت.

- إنى أتعلم القراءة فى المساء، دروس للنساء فقط، وإذا كنت أجد القوة على أن أتعلم فى سنى هذا فلكى أعرف ما يريد الله منا. وأنا على استعداد لأن أعطيه كل أبنائى إذا طلبهم، فالموت فى سبيله شىء جميل، وليس كمن يقع من ترام.

فزوج صفية يعمل (كمسارياً) فى ترام.

وداعاً يا صفية.. وداعاً أيتها المرأة البائسة! عسى ألا تتفتح عيناك أبداً إلى أبعد من مصحفك... أو إلى التفسير الذى يقدمونه لك... عسى أن تظلى تؤمنين حتى النهاية بأنك واحدة من المختارات... من أولئك الذين قال عنهم قديسك الخمينى إن «شجاعتهم تصيب أقلامنا بحمرة الخجل، لأن ما تحمله من حبر لن يفى أبداً بمجد تضحياتهم».

على بعد
سنوات ضوئية

ومرة أخرى سرنا فى الممرات التى لا تنتهى.. وقد توافقت خطانا أنا ودليلتى.. وأنا أشعر أن نفس الأفكار تدور فى رأسينا... إنها سليلة أسرة راقية، وهذا اللقاء مع الروح الشعبية الإيرانية التى لا تعرفها جيداً يثير حيرتها، ويكاد يشعرها بالحرج تجاهى.

ـ اسمعي.. إنني مسلمة، أؤدي الصلوات يومياً، ولكن أمام كل هذا الاستسلام أكاد أصاب بالجنون... صحيح أن صفية إيرانية، لكنها غريبة عني تفصلنا سنوات ضوئية، أبعد حتى من أمي، التي تكاد فكرة فقد ابنها تصيبها بالجنون، وأخي في مأمن في إنجلترا، ولكن القلق لا يدعها لحظة، إلى حد أنها لا تنطق باسمه بأمل أحمق هو أنه عندئذ لن يعود موجوداً في نظر أولئك الذين يمكن أن يجدوه ويرسلونه إلى الجبهة.

وعند خروجنا التقينا بعمامتين كبيرتين، فالملالي ـ كأمناء الشرطة ـ كثيراً ما يسيرون اثنين اثنين. وعباءاتهن تضيق خطاهم حين يلفونها ـ كما يفعل هذان ـ حول ركبهم.. إنهما يسيران في خطوات قصيرة مستقيمين كأشجار السرو في المدافن، تحميهما حقيقتهما، وخيلاؤهما اللانهائية.

العقد

حائرة تائهة

منكسرة وحزينة

بوجه سافر

وبلا شادور

لا تبالي بأن يلقوا القبض عليها

ولا تأبه بالحراس

وعيناها

حبتا عنب حمراوين

سقطتا من العنقود

إنها ملتاثة

وضائعة..

ضائعة أمام نفسها

وأمام العالم

كأنها قشة فى مهب الريح

تدور حول نفسها

جدث بلا قبر

ميتة فى نظر الجميع

وحول رقبتها

تتدلى بقعتان، لعنتان

حذاء جندى ميت

معلق برباطه

ما هذا؟ سألتها

إنه ابنى...

الطفل المسكين

يجلس على كتفى

وهو يرتدى حذاءه

سيمين بهبهانى(١)

(١) ترجمها عن الفارسية إلى الإنجليزية إيراج كابولى.

سيمين بهبهانى
أعظم شاعرات إيران

ـ لم تكن قصيدة «العقد» من وليد خيالى.. فقد رأيت بعينى هذه المرأة التى تطوف بين مقابر بشتى ـ زهرة، رأيتها وسمعت لوثاتها، ورأيت حذاء ابنها يتدلى حول رقبتها. وفى ذلك الحين هاجمت الصحف قصيدتى، وقالوا إنى أسخر من أم شهيد، ولا أبدى احتراماً لها... أتستطيعين أن تتصورى.

وكنت أستطيع...

وأكد لى بواب فندق «لاله» بالفعل ما كنت أعرفه، أن سيمين بهبهانى هى أعظم شاعرة معاصرة باللغة الفارسية الكلاسيكية ـ وتلك أيضاً سمة لإيران... بوابى الفنادق الذين يحفظون الشعر.

قد تكون السيدة بهبهانى صرحاً لكنها أكثر الصروح تواضعاً... ولكم هى كريمة.

ففى تلك الأمسية من شهر ديسمبر ١٩٩٧ كان ثلج خفيف قد هبط، والسيارة تشق طريقها فى شمال العاصمة، وهى تنزلق من منحدر إلى آخر حتى وصلنا إلى غابة من الأبراج الحديثة... إن مجرد ذكرى هذه الأبراج الباردة بأبهائها الفسيحة تثير القشعريرة فى جسدى.. وأعترف أننى لم أكن لأتصور أن شاعرة يمكن أن تعيش فيها.. فما من سحر.. ما من أثر لشىء فارسى فى مانهاتن الإيرانية هذه. ولكن أى أهمية (للديكور)... إن سيمين تعيش فى عالمها هى، عالم نسمته الرقيقة هى شعرها.

ـ الأمر بسيط.. إننى أكتب فى كل مكان، وفى أى مكان. بل أحياناً ما اضطر إلى أن أوقف سيارتى، فالشعر يأتينى فى نفحات. وقد بدأت الكتابة وأنا فى الرابعة عشرة، ولم أترك قلمى حتى الآن.

فهى بشعرها الأسود، الذى لفته حول رأسها، و(ماكياجها) الأشبه بممثلة تراجيديا، وزيها الأسود، ومجوهراتها... سيدة عظيمة، الروح عندها أهم من

تجاعيد الوجه، وهي لا تخفي سنها، فقد ولدت في ٢٨ يونيو ١٩٢٦ .

ـ انفصل أبواي بالطلاق وأمي حبلى بي . . . إنها عالم آخر، طهران طفولتي، الشوارع مرصوفة بالأحجار، وجلبة العربات ورائحة روث الخيل . . . أقدم ذكرياتي؟ رائحة مربيتي وهي تضمني بين ذراعيها .

فالواقع أن سيمين جاءت من أسرة لديها مربيات . . فعباس خليلي والدها، لم يكن نكرة، وإنما بورجوازي كبير ليبرالي . . . ذو أفكار تقدمية، وكان أول كاتب إيراني ينغمس في كتابة الرواية الاجتماعية . . . إن لم نقل الاشتراكية . . كما كان نصيراً للمرأة . . . إلا حيثما يتعلق الأمر بنساء أسرته .

ـ وحين بلغت السابعة عشرة زوجني لصديق له يماثله في أفكاره السياسية . . زوج مهذب بلا شك، لكن سنه كان ضعف سني، وكنت أحبه كأخ ولا أكثر .

ولم تستطع سيمين أن تختار حياتها إلا بعد سنوات، بعد أن طلقت وكبر أولادها الثلاثة .

ـ توفي زوجي الثاني . . ويعلم الله كم كنت أحبه، وفي ذلك الحين كان أسلوبي رومانسياً، كنت أغني للحب، وللرغبة، ولدموع الانتظار . . . إلى أن جاءت الدموع الحقة : الثورة والحرب والعنف والإعدامات، ونفذ هذا كله إلى شعري، وبدأت أتكلم، وأندد بهذه السنوات الدموية .

ومنذ أيام الشاه كانت الرقابة تتسلل إلى بعض أشعار سيمين معتبرة إياها إباحية، وهاهي السلطات الإسلامية تتهمها بدورها : إن بهبهاني تضعف معنويات الأمة، بهبهاني تبذر الشك في كمال الإسلام، في قيمة الثورة والحرب . وهكذا أخذوا يقطعون، ويحذفون، ويحظرون، ثم يرفعون الحظر، ويعيدونه ثانية من طبعة إلى أخرى . ألم يظل أحد كتبها ممنوعاً طيلة اثنى عشر عاماً؟

ألف طريقة

للسمع

ـ لست على ثقة، فقد كانت هناك عصابة على عيني حين اقتادونا، ربما إلى

سجن إيفين السياسي؟ وفي غرفة بلا نوافذ وضعونا طيلة الليل. وحين طلع النهار دفعونا في السيارات، وساروا بنا مرة أخرى إلى واحد من أكبر شوارع طهران، وهناك رفعوا العصابات عن عيوننا، وتركونا على الرصيف، أناس غريبون، بل إن أحدهم قال لي: «أنا أعرفك يا سيدتي»... وقد حضرت إحدى ندواتك». وحين سمعته يقول ذلك دارت في ذهني فكرة أن هناك ألف طريقة للاستماع... وأنت يا عزيزي حين جئت لم تكن قد جئت لتصفق!

وقعت هذه الحادثة في عام ١٩٩٧، أي منذ أقل من سنة من مقابلتي مع سيمين.. كان الملحق الثقافي لإحدى سفارات أوربا الغربية قد دعا عدداً من الكُتّاب الإيرانيين إلى منزله حين دهمته «عناصر غير منضبطة»، وقبضوا على الضيوف بوحشية، أمام النظرة العاجزة للدبلوماسي ـ الذي اضطرت السلطات الإيرانية إلى تقديم اعتذار رسمي له فيما بعد.

لم يشفع للشاعرة سنها ولا شهرتها الواسعة في أن تحميها تلك الليلة من هذه الأحداث الكافكاوية التي كانت قد أفلتت منها حتى ذلك الحين.. أما عن هذه اللحظات فإن سيمين قصتها عليّ اليوم بقدر من اللامبالاة، ربما كان مستمداً من أمل يائس.

ـ رئيسنا الجديد محمد خاتمي... إن أحداً من أسلافه لم يتحدث أبداً مثله... إنه يتحدث عن دولة القانون، والقضاء على العسف... ومنح السلطة للمجتمع المدني... فلعل كل هذه... هذه الأشياء الرهيبة ستختفي قريباً؟

المساء

إذا كان جمال الليل عبثاً

فلماذا هو جميل؟

ولمن هو جميل؟

فالليلة

يتدفق فيض النجوم بارداً

والنسوة غارقات فى النحيب

وشعورهن الطويلة مفكوكة على أكتافهن

والضفادع تغنى

أغنياتها التى تقطع الأنفاس

وتعيد الذكريات

فى نحيب لا ينتهى

حتى الفجر

تقطعه جوقة من اثنتى عشرة رصاصة...

إذا كان جمال الليل عبثاً

فلماذا هو جميل؟

ولمن هو جميل؟

أحمد شاملو(٢)

كم من ليال كهذه قضاها الشاعر فى زنزانته!

ـ أذكر تماماً اليوم الذى نظمت فيه هذه القصيدة.. فى عام ١٩٥٩.. أجل حتى فى السجن! ماذا أستطيع أن أقول؟ الشعر هو حياتى.. الشعر هو الذى يدفعنى إلى أن أكتب.. هو الذى يحولنى إلى شاهد.

كان أحمد شاملو ـ الذى يعتبر أعظم الشعراء الإيرانيين المعاصرين ـ فى الثانية والسبعين حين لقيته فى منزله فى كاراج ذات أمسية حارة فى يونيو ١٩٩٧. فيلا فاخرة فى شارع فسيح تحيطها أشجار ضخمة مرتعشة. ورغم أن خلف شاملو تاريخاً طويلاً من التمرد فإنه لا يعيش حياة شاعر لعين: فالأضواء الخافتة تنعكس

(٢) ترجمها عن الفارسية إلى الإنجليزية إيراج كابولى.

على سجاجيد رقيقة، ومقاعد إنجليزية من الجلد الأحمر، وتحف من الفن الإيراني الكلاسيكي، ومن الفن الحديث، بل ومن الفن شديد الحداثة لا تعرضها أبداً المتاحف الرسمية المحلية.

- إن كل هذه اللوحات والتماثيل والرسوم هدايا.. ولدي من (البورتريهات) ما أنوء به، ولا أعرف أين أضعها.. مما يثير ضيق أصدقائي الفنانين.

وتطفح مكتبة الشاعر بكتب المؤلفين الإيرانيين، لكنها تضم كذلك مايكوفسكي وجارسيا لوركا وبريفيرت وأراجون وإيلوار وأبولنيير.

ويوم أن زرته كان شاملو يتعافى من جراحة خطيرة أجريت له حديثاً، واستقبلني وهو مستلق، وشعره الأبيض الكثيف يختلط ببياض المخدات، وكانت زوجته عايدة قد أنزلت السرير إلى الدور الأول ونصبته في الصالون. عايدة.. حبه الكبير، وإذا كان القرن العشرون قد شهد في فرنسا أراجون والزا فقد شهد في إيران شاملو وعايدة.

ألمسك فأكتشف العالم

أفكر فيك

فألمس الزمن العاري

المتوقف اللانهائي(٣)

إن من المثير دائماً أن تلتقي زوجة شاعر، أن ترى بعينيك المرأة التي ألهمت كل هذه النغمات وهذا الحب، كانت عايدة التي ترعى زوجها وتحمي أعماله بحرارة تصغر حبيبها كثيراً.. والرقة فيما بينهما تكاد تلمسها بأصابعك.. في كل نظرة، وكل إيماءة.

وأخرجت قلمي ودفتري، ودفعت مقعدي إلى جوار سريره، وأنا أشعر بقدر من الحرج لهذا القرب، ورحت أتأمل وجهه الوسيم المنهك.

- نعم.. لقد كنت وسيماً وأنيقاً وساحراً.

---

(٣) نقلاً عن الترجمة الفرنسية بقلم بارفيز خازاري.

وجه مازالت تحيا فيه عينان داكنتان.. رجل بالغ الحساسية، أدار ظهره إلى أشعار الأمس الكلاسيكية التي يعتبرها شديدة الضيق في أسلوبها، ورومانسية وخاوية أكثر مما يجب.. وكنصير للحرية كان أيضاً يدافع عن الشعر الحر:

أن تعيش

في صرخة

أن تنتفض كنافورة

مياه أرضية

تتذوق

الحرية(٣)

ولعل الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أن شاملو، في هذا الوقت الذي يضع الدين بلاده في قالب، يجسر على أن يدع الأرض تقول:

يا أيها الإنسان، يا ملك روحي،

قبل أن تتقبل مكفوفاً عبودية السماء

وتبلي رأسك فوق حجر المصلي

وتعقد ذراعيك في خضوع أمام صدرك

فإنني أنا الأرض، جارية حبك،

المليئة بالحياة والخضرة،

كنت أحكم في بهجة(٣)

إن الرسالة واضحة، مفهومة لدى الوهلة الأولى، لكن كثيرين لم يكونوا في جسارة شاملو:

- حين تقابلين فنانينا سيكون عليك أن تنفذي إلى ما يختبئ خلف سائر الدخان التي يحمون بها أنفسهم، خاصة وأن الرقابة قد ازدادت تشدداً بعد الثورة. إن رقباتنا غدوا أقل حذقاً، لا يدفعهم سوى التعصب الديني وحده. وفيما مضى كانوا يكتفون بحذف بضع عبارات أو صفحات من كتاب ما، أما اليوم فإنهم يحظرونه

ببساطة.

وتنهد ثم استطرد قائلاً:

ـ ومن المؤسف أنه لا جديد في هذا حقاً، ولعل الشعب الفارسي هو أكثر الشعوب حباً للشعر.. لكن أشعاره جواهر يصقلها الرقباء.. منذ قرون وقرون، وحتى شاعرنا الكبير حافظ تعرض لطغيانهم... ولقد استبطنا الرقابة حتى غدت جزءاً من كياننا، من إبداعنا، ولكن مهما التففنا ودرنا، مهما صقلنا استعاراتنا، مهما كانت مستويات المعاني التي نضفيها على قصائدنا... فإن هذا لن يعفينا من أن نمر بنفس.. المحنة.

وهكذا ألقي القبض على شاملو للمرة الأولى في عام ١٩٤٢ حين كانت القوات البريطانية والسوفييتية تحتل إيران.

ـ حتى في صباي كنت وطنياً متحمساً.. وفي المدرسة كنت أختنق... ومنذ أن تعي ذاكرتي وأنا أنظم الشعر، وسرعان ما أصبحت صحفياً.

ثم ماذا؟ ثم تلك الإجابة المألوفة لشاعر «يمسك في قبضته بسخط الشارع»:

ـ ثم استمررت... ماذا تريدين أن أقول لك؟ إنني فوضوي، مثالي، أحارب دائماً ضد الأقوياء، ويلقى بي دائماً في السجن، وأشعر دائماً بالخوف من أن أعدم ذات يوم.. لقد عانيت كثيراً.. لكن لو أنني عشت حياتي ثانية فلن أتردد لحظة، وسأبدأ جنوني من جديد.

الطريق إلى قم

تحت أضواء الفجر الذهبية يمتد الطريق السريع بين طهران وقم، طريق سريع ككل الطرق السريعة الأخرى، ببوابات المرور ورائحة محطات البنزين، وحولنا من كل ناحية تمتد فارس، وهنا وهناك ترتفع أشجار الحور النحيلة، وأشجار الصنوبر

كأنها مظلات، وعلى طول الطريق مزارع الشجيرات التي تشبه حين ترى من بعيد اللحى النابتة التي انتشرت في إيران مع (الموضة) الإسلامية.

ومرة أخرى تنبعث أمامي عند الأفق، لامعاً فوق الأرض البنية، الذهب... ذهب القباب... ذهب مساجد بشتي ـ زهرة، حيث شهدت مبهورة منذ فترة حمى الذكرى الثامنة لوفاة الخميني.

ثم مضى حلم الذهب، لتحل محله مساحة من التلال تغطيها علامات غريبة بالطلاء الأبيض: كلمات وأرقام رسمت على الأرض الصخرية لتبين مواقع مختلف الوحدات التي جاءت للتدريب في هذه البقعة العسكرية الشاسعة المفتوحة أمام الرياح، وأسماء الوحدات تحمل معان مزدوجة، دينية وعسكرية، مثل فرقة «ذي الفقار» التي تحمل اسم سيف الإمام علي ذي الحدين، وإلى جواره صورة ضخمة لهذا السلاح المقدس.

وعلى طول الطريق شجيرات مغطاة بالغبار تحمل أزهار الغار، وهنا بوسع المسافرين أن يستمتعوا بقدر من الراحة، وأن يزاوجوا، بفضل المساجد القشيبة التي أقيمت خلف محطات البنزين، بين هدير المحركات ونغمات الإيمان العذبة في قلوبهم.

لكن رضا لم يكن اليوم يبالي بكل هذا الجمال، بالعكس كان يقطع بسرعة مائة كيلو متر في الساعة الأرض المنبسطة المصبوغة بالملح من البحيرة القريبة، فقد كان علينا أن نسرع إذا لم نرد أن نصل متأخرين إلى المدينة المقدسة.

ـ قم... مصنع الملالي الكبير... هكذا كان رضا يصيح للرياح الساخنة التي تندفع من النوافذ، ولنا نحن زبائنه المكومين في المقعد الخلفي لسيارته العتيقة، ثم يضيف.. لكن قم ليست من أجل هذا أفضل... ففي قم مساجد كبيرة، لكن المساجد الكبيرة لا تعني دائماً قلوباً وعقولاً كبيرة.

وفيما بعد رجاني رضا (وهو اسم مستعار) ألا أذكر أبداً اسمه الحقيقي، لو أنني خاطرت بذكر ملاحظاته الساخرة في كتاباتي.

محظور على النساء الغناء

أما الآن فقد كان رضا ينتهز فرصة الطريق الواسع ليضع أشرطة الغناء واحداً بعد الآخر في جهاز الكاسيت، رافعاً بقدر ما يستطيع صوت هذه الأشرطة الأجش لأنها أديرت مئات المرات، وأخذت السيارة ترتعش بأصوات نسائية ثاقبة تساندها نغمات القيثارة.

... وأخيراً هاهو الشرق مرة أخرى..

فكما يحظر الرقص والراقصات حظرت المغنيات منذ الثورة، إلا في جلسات خاصة... واختفين من الإذاعة والسينما والتليفزيون... وذات مرة سألت أحد باعة الشرائط في شارع انقلاب (الثورة) في طهران حين لم أر أي صورة لامرأة على أغلفة الشرائط، فتململ حرجاً وقال «ماذا تريدين؟ هذا هو الوضع...» وسألته لماذا لا يظهر في هذا (الأفيش) عن كبار عازفي الموسيقى الكلاسيكية الأوربية المعاصرين سوى رجال؟ مضيفة في خبث أن عازفة البيانو أو القيثارة تعزف بأصابعها لا بصوتها فأجابني «لا تبحثي عن تفسير يا سيدتي...».

كما لم أجد أبداً صوراً لنساء، اللهم إلا بضع تخطيطات غائمة نادرة، على أغلفة الكتب التي تمتلئ بها المكتبات في العاصمة وخارجها... فالإيرانيون يقرأون كثيراً.

وطمأنني صديقي مصطفى الذي كان بصحبتنا إلى قم قائلاً:

ـ يقال إنه بعد وصول خاتمي إلى السلطة صرح لمغنيتنا الكبيرة سيمابينا بأن تغني علناً.. حسناً.. علناً بطريقة ما.. في صالون مغلق، وللنساء فقط.

وعقب رضا مردداً مرة أخرى ما سمعته من قبل كثيراً:

ـ يقول معممونا أن غناء المرأة ضد الإسلام لأن صوتها يجتذب الرجال كجنيات البحر...

ومنذ قدومى إلى الجمهورية الإسلامية للمرة الأولى أحسست بهذا النقص... وبلا وعى كانت أذناى تبحثان... فالحق أنه دون أصوات النساء الرتيبة التى تصخب فى الأسواق فى آلاف أجهزة الترانزستور الصارخة لن تكون أى مدينة فى الشرق شرقية حقاً.

ـ وهكذا فإننا نستمع لهن سراً، نساء مثل باهستى وشاكيلا وخوميرة اللاتى أسمعتك إياهن للتو، إنهن بلابل حقاً، أليس كذلك، لقد غادر الثلاثة إيران، وتأتينا شرائطهن من أمريكا، وأنا اشتريتها من السوق السوداء.

شرائط من كل نوع، وأفلام أجنبية فى الفيديو، كل شىء إلى إيران، وليس سراً أنه خلف واجهة البلاد المتقشفة تعيش السلع المهربة فى إيران، كما تعيش السمك فى الماء ـ «فما أن يخرج شريط جديد لمايكل جاكسون فى الولايات المتحدة.. حتى تجديه فى إيران بعد يومين!».

ولكن فلنعد إلى مصطفى الذى رأيته يتحرك فى انفعال على المقعد الأمامى، مصطفى الذى استدار نحوى، ثم انفجر قائلاً:

ـ حسناً... إننى أيضاً أغنى! بل لقد غنيت ذات مرة أمام شقيق على خامنئى مرشدنا الروحى!

وانطلق الفنان، صوت جميل دافئ ملىء بالشجن، وإنما أيضاً بالحياة والألوان... ذكرى لإسلام أكثر إقبالاً على الحياة، كاد أن ينسى.

ـ ليس مسموحاً لنا فى العلن أن نغنى إلا بحب الله.. لماذا؟ إننى أسألك أى شر فى أن نغنى للحب الأرضى؟ خاصة وأن أشعارنا الفارسية جميلة جداً، ولا سيما القديمة، وهكذا فإننى أغش قليلاً حين أغنى، وأدس بعضها هنا وهناك، بل لقد تجرأت وأديت بعض الإيقاعات والأصوات الحديثة... فماذا تظنين قد حدث، لقد أحب الجميع ارتجالاتى.. حتى الملالى.

ومضى مصطفى يقول:

ـ كان هذا انتصاراً ضئيلاً.. فليس مسموحاً لنا إلا بالقليل من المتع.

«مصنع الملالى»

وأخيراً بدت قم، وقم مدينة جافة، أمام خلفية صحراوية، تمتد على ضفاف نهر جف منذ أمد طويل، تظللها هنا وهناك ميادين صغيرة.. قم حيث الهواء في الصيف حارق.. ومع ذلك تلطفه اللوحات الضخمة المرسومة على الجدران في كل مكان، تحييك وأنت تمر... بحيرات وسيول وقمم ثلجية تذكرني بوطني، ولكن منذا الذى يتحدث عن الحر فى قم؟ إن الشادورات الخانقة، الخالصة الجافة، والأكثر سواداً من السواد، تملأ الطوار، وبالطبع العمائم والقفاطين الطويلة والعباءات النبيلة واللحى الكثة، وبدت لى صناديق الفقراء هنا أكثر من أى مكان، تلك الصناديق التى تنتصب فى الشوارع، تعلوها زهرة معدنية حمراء كبيرة، زهرة العقيدة الشيعية الحمراء.

ففى عام ١٩٨٠ نشبت الحرب بين إيران والعراق. ومنذ ذلك الحين ظلت النجف وكربلاء، أهم مزارات الحج الشيعية، مغلقتين أمام المواطنين الإيرانيين لأنهما تقعان فى الأراضى العراقية. وتردد الشائعات أن وصول الرئيس خاتمى إلى السلطة في عام ١٩٩٧ أعقبه انفتاح غائم مع بغداد، وأن بعض الحجيج الإيرانيين نجحوا فى التسلل إلى العراق، وعلى أى حال فقد كان على الإيرانيين طيلة سنوات انتظار فتح الحدود هذه أن يقنعوا بالحج إلى المزارات المقدسة الأخرى، وقم واحد منها، قم التى ظلت منذ عام ١٩٦٢ موطن النشاط السياسى الإسلامى، نشاط ملتهب شارك فيه محمد خاتمى بنفسه بحماس أيام شبابه.

إنها «مصنع الملالى الكبير» على حد قول رضا. وهى واحدة من أكبر مراكز الإسلام الشيعى.. مدينة جامعية كبيرة: فالمساجد والمكتبات ومدارس تحفيظ القرآن.. تعلم طريق الله.. وهم يأتونها من كل مكان، وهكذا التقيت بمحمد بقيل من إسلام أباد بباكستان... ثلاث وعشرون سنة.. وأسنان سليمة جميلة - فقد كان لا يكف عن الابتسام.. إلا أنه رفض أن أصوره.

ومحمد فى العام الخامس من دراسته، وله الحق فى ارتداء عمامة بيضاء، فسلم الدرجات الدقيق يضع سبع درجات، أعلاها هى آية الله - عظمى مرجع.

كنت ذلك الصباح أجر قدمي وسط الحشد، وعيناى تدوران من حولي، على الشادورات والعمائم، والشباب بلحاهم الإسلامية يبدون على (الموضة) بسراويلهم المضلعة وأحزمتهم المعدنية السميكة، وقمصان مفتوحة تحت (بلوزات) سوداء من الجلد الصناعي، وعلى دائرة المحلات المحيطة بالمسجد الكبير، حين وقعت عيناى عليه، كان محمد جالساً في مرح مع رفاقه الطلاب الباكستانيين في قلب أحد المقاهي.. مقهى فقير مضاء بالنيون، لكنه نظيف لامع.. على شاكلة البلاد كلها في واقع الأمر: فجمهورية إيران الإسلامية... بلاد ترقص فيها الفوط والمكانس... ففي كل مكان تلتمع عبر شوارع المدينة (الجاكتات) البرتقالية التي يرتديها الكناسون وجامعو القمامة...أما المتسولون فأين هم؟ لعلهم مضربون!

آلاف من الطلبة

في مواجهتي جلس الباكستانيون يحتسون الشاى في هدوء، بعد أن صبوه في الأطباق حتى يبرد، وأخذوا يتحدثون، ويبتسمون، فالحياة جميلة، والدراسة مجانية، ويحصل كل منهم على أربعين دولاراً كل شهر كمصاريف جيب.

وكم عدد الطلاب الذين تضمهم جامعتكم؟

ـ آلاف... ماذا تتصورين... من أكثر من خمسة وخمسين بلداً، أغلبهم من العرب والأفغان، وغيرهم كثيرون أيضاً.. حتى من اليابان.

وعلق مصطفى بصوت قاطع:

ـ ذلك أن حكومتنا تبذل جهوداً كبيرة لنشر عقيدتنا في العالم كله.

ثم غيّر رفيقي العابر لهجته، وقال وومضة من المشاغبة تلتمع في عينيه

ـ من يعرف.. ربما وصلت حتى لديكم.. حتى بلادك يا سيدتي؟

وانطلق الجميع ضاحكين، إن هؤلاء الباكستانيين، مرحون حقاً، وهم ينظرون

لى فى عينى رغم أنى امرأة، وهكذا خاطرت بأن أسأل محمد بضع أسئلة نسائية :

ـ عمامتك البيضاء هذه.. كم يبلغ طولها؟ ورفعها عن رأسه كما ترفع القبعة وقال :

ـ هاهى.. المسيها.. انظرى كم هى صلبة، إننى لا أعقدها سوى مرة فى الشهر، ألف أمتار القماش السبعة حول ركبتى.. إنها طريقة معقدة.

ـ ولحيتك؟ أهى إجبارية؟

ـ نعم.. إن هذا هو الدين.. وفى مدرستنا بعض الصينيين الذين لا تنبت لهم لحى، ثلاث شعرات بالكاد.. لكن الله يحسبهم بدورهم... تماماً كما يحب رافسنجانى رغم كل شىء.

وهكذا... فأمنا الطبيعة هى المسئولة عن اللحية شبه الجرداء لآية الله القوى هذا ورئيس الجمهورية السابق.

زواج

حسب الطلب

وعدنا إلى الشارع، ياللغرابة.. ماذا تصنع هنا هذه الصورة الباهتة لشاب بعمامة شاحبة بين كل هذه الألوان الزاهية للأردية الشيعية؟

قال لى البائع فى نشوة :

ـ إنه النبى محمد فى سن الثامنة عشرة، النبى كما رسمه منذ عهد بعيد رسام إيطالى حسبما يقولون. وقد كانت هذه الصورة لدى الإمام الخمينى الذى سمح باستنساخها ـ باركه الله ـ لصالحنا جميعاً.

أمر مذهل! لقد كنت أعتقد دائماً أن الإسلام يحظر بشدة تصوير النبى.

وثمة صورة أخرى مثيرة... حية هذه المرة.. هذا الملا الذى يتكىء على (بنك)

محل للعطور، هذا الملا الوسيم ذو التقاطيع الجميلة والرموش الطويلة يستنشق رائحة زجاجة بعد الأخرى، غافلاً عن كل العالم المحيط به لأنه منغمس فى نشوة فى عالم الياسمين والليمون و . . .

وعلى مبعدة كانت امرأة شابة تلح في انفعال على أحد الملالى بأسئلتها. واقترب مصطفى ليسمع ما تقول.

- إنها تتحدث بإصرار، وتقول إنها بحاجة إلى ورقة يوقعها الملا . . . زواج متعة لمدة يومين . . . لابد أنها عاشقة أو أنها بحاجة إلى المال.

وشرح لى مصطفى عندئذ زواج المتعة، أو الزواج المؤقت، وهو طقس شيعى بحت.

- بحكم زواج المتعة، الذى يمكن أن يعقد لمدة ساعات أو يوم أو أسبوع أو شهر أو أكثر، أى للفترة التى تريدها، يمكن للرجل والمرأة أن يمارسا الحب دون خطيئة. ويجب أن تبلغ المرأة الثالثة عشرة على الأقل. أما الرجل فيمكن أن يكون متزوجاً أصلاً، وهو الذى يدفع دائما.

ويرجع زواج المتعة إلى عهد بعيد، ويقال إنه مازال يمارس اليوم فى بعض البلدان الإسلامية غير الشيعية مثل العربية السعودية. واسم المتعة نفسه واضح بذاته. وفى البداية كان هذا الزواج المؤقت قاصراً على الرحالة، وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن القبائل البدوية والتجار العرب والمحاربين المسلمين كانوا يتنقلون كثيراً، وهكذا بفضل زواج المتعة كانوا يستطيعون ممارسة الحب دون إثم.

وقد كان الزواج المؤقت ممنوعاً أيام الشاه، لكنه عاد بقوة بعد الثورة، وقد شجعته العودة إلى المصدر، وكذلك الوحدة - المالية والعاطفية - التى تحياها أرامل الحرب.

والصورة المثلى لعقد زواج المتعة تحوى مبلغاً من المال يدفعه الزوج لامرأته أو عائلتها وقت التوقيع. كما يتعهد الرجل برعاية الابن الذى يولد عن هذا الزواج.

ويقول مصطفى ساخراً:

- لكن الكمال ليس للبشر، فأنا أعرف كثيراً من البائسات اللاتى خدعن.. أما ملالتنا الأعزاء فمن السهل عليهم أن يتزوجوا أكثر من امرأة لأنهم يعرفون كل القوانين . . . وكل الثغرات.

الفقيهات

رغم المظاهر فإن الله لا يخاطب الرجال وحدهم، ومن هنا جاء موعدى لزيارة جامعة الزهراء للفقه، التي تقتصر على النساء، وفى مكان ما من قم يوجد المكتب الذى يمكنه أن يختم رسمياً التصريح الذى لابد منه لكى أتمكن من زيارتهن.

ولكن أين يوجد هذا المكتب؟ عبر رضا الجسر الذى يجتاز ما كان ذات يوم بعيد مجرى نهر وغدا الآن فراغاً مليئاً بالتراب، وأخذ يدور يمنة ويسرة،ضالاً وسط هذا التيه من الجدران العالية، قبل أن يصل فى النهاية إلى فناء تجرى فيه عملية تجديد واسعة. وفى نهاية الفناء يقف بناء صغير يحمل لافتة: مكتب الهجرة.

وإذا حكمنا بالطابور الطويل المصطف أمام المكتب فإن عدداً ليس بالقليل يهاجر، أو يعتزم أن يهاجر، من مدينة قم الطيبة، وجلس ملا صغير، لم تكد لحيته تنبت بعد، فى صبر ينتظر دوره، على الأريكة الوحيدة الموجودة فى الغرفة وظهره إلى الحائط. كان الشاب النحيل يبدو مسحوقاً، بفعل الحياة، وبفعل تلك النظارة الضخمة والعامة.. ترى أهو بدوره يريد أن يهاجر؟!

وباختصار وجدنا أخيراً طريقنا إلى هؤلاء النسوة الغارقات فى حب الله هؤلاء النسوة المحيرات، هؤلاء الأخوات وعلامات الاستفهام فى آن واحد. ولكى نصل إليهن كان علينا أن نسير طويلاً بحذاء ضفة النهر، ثم نعبر تحت رواق كبير يقود إلى عالمهن المغلق.. إنه عالم جميل، بمبان مزينة بالموزايكو اللازوردى وسط بساتين رائعة، وإن كان ـ على حد تعبير بودلير ـ عالماً بلا ترف، بهدوء لا جدوى منه، ولا أثر لأى نشوة.

خلف الستار

وبعد بضع درجات تقود إلى المدخل تمتد سلسلة من الممرات كانت أبوابها تفتح

خلسة ونحن نمر، ورأيت مطوياً في أحد الأركان (بارافان) عيادة طبية يقوم على مواسير معدنية، ويغطيه قماش أبيض: يختفي الأساتذة الرجال خلفه وهم يلقون محاضراتهم، ولا تبدو منه سوى أقدامهم الكبيرة.

و ثمة ستارتان منزلقتان ثقيلتان تمتدان حتى الأرض تعزل مقار النسوة، واقتربت مرافقتي وألصقت أنفها بكتل القماش اللامعة الملونة وهمست بكلمة السر، وسرعان ما بدا وجه امرأة من بين طيات القماش.

وهمست لي: تعالي!

وانفرجت الستائر وعادت إلى مكانها خلفي، وبدت أمامي ممرات كثيرة يرتفع فيها وقع أحذية النساء وحفيف الأحجبة، وأمامي كانت تسير دليلتي حين سدت طريقنا في منتصف الممر مجموعة من النساء يتناقشن بحرارة.. كانت المناقشة حامية، تدور مرة أخرى حول انتخاب الرئيس خاتمي المفاجئ، الذى كانت النساء والشباب يؤيدونه بحرارة.

- أنتن أيتها الفقيهات، لمن أعطيتن قلوبكن؟ لخاتمي أو لخصمه المحافظ ناطق نوري؟

وتحركت الأحجبة، ثم ارتفع صوت من بينها

-إن كل الإيرانيات من بيننا قد أدلين بأصواتهن.

- لمن؟

- الله يحبهما هما الاثنان.

حكمة الإسلام

توحدنا جميعاً

لكن مديرة المؤسسة كانت في انتظاري ومعها عدة نساء أنتقين لهذه المناسبة،

ورأيتهن من بعيد وهن ينظرن لي من نهاية الممر وأنا أدنو منهن. وصافحتهن جميعاً، حيث استقبلنني بتحيات غامضة وابتسامات مبهمة، وأخذن يجمعن حولهن كتل القماش اللاتي يرتدينها ثم جلسن أمامي على الجانب الآخر من مائدة طويلة مغطاة بالمشمع، وتشرق فوقها باقة مقتطفة حديثاً من الورود الحمراء. ووفقاً لتقاليد الضيافة الإيرانية الرقيقة كانت الأطباق الممتلئة بالفاكهة التي أجدها دائماً موضوعة أمامي في إيران: التفاح والكمثرى والخوخ والمشمش، أهرامات ذكية الرائحة تخرج منها عناقيد العنب، تحليها شرائح من البطيخ على شكل نجمة.

وأخرجت كاتبة الجلسة أوراقها وأعدت قلمها. وفي اللحظة نفسها جلس ملا شاب صامتاً، وإنما بعيد عنا عند الطرف الآخر من المائدة. كانت شفاهه وردية مليئة، وعيناه ـ تحت رموشها الطويلة الطفولية، منكستان في خفر، فمحظور عليه أن ينظر بهما إلى امرأة، ولكن ليس محظوراً عليه بالطبع أن يصغي بعناية.

ستقوم زينب بالترجمة فيما بيننا، إنها في التاسعة عشرة من عمرها، وقد جاءت منذ عامين فقط من غويانا البعيدة حيث أربعون بالمائة من السكان من المسلمين كما قالت لي. كانت بشرتها سوداء كنقابها، ولكن ينبعث منها شيء أكثر استرخاء وأكثر مباشرة وبهجة من رفيقاتها الإيرانيات. وحين عبرنا الحدائق فيما بعد فتحت شادورها ثمة وهي تضحك إذ تريني بلوزتها المفتوحة الصدر وسروالها الوردى المختفيان تحت الشادور.

ـ لماذا اخترت إيران؟

ـ لأنها البلد الوحيد الذى يطبق الإسلام بكل نقائه. لقد زار والدى إيران قبلى وأحبها كثيراً حتى أننى أسرعت بعد عودته لطلب الالتحاق بالدراسة هنا. وكان من حسن حظى أنهم قبلونى.

فالواقع أن النساء يتدافعن لدراسة الفقه في قم. ويزداد عددهن كل سنة، ولكن عشرين فى المائة منهن فقط هن اللاتى يقبلن، ثم بعد أربع إلى خمس سنوات من الدراسة يعتبرن مؤهلات للتدريس..

حين لا يوقف تحليقهن زواج إجبارى.

وتنهدت زينب وهى تقول «لو رأيتهن وهن يغادرن.. إنهن لا يتوقفن عن البكاء».

وتقوم بتمويل الجامعة المؤسسات الدينية القوية التى أقيمت فى زمن الخمينى، ومن ثم فإن هذا الكنز من المعارف لا يكلف الألف وخمسمائة فتاة اللاتي تقمن فى الجامعة شيئاً.. وأصغرهن فى السابعة عشرة، وغالبيتهن العظمى من الإيرانيات، لكن نطاق المدرسة واسع، فهى تجتذب طالبات من أكثر من ثلاثين بلداً. من آسيا مثل باكستان وماليزيا، ومن إفريقيا مثل الكونغو وغينيا وكينيا، ومن أمريكا الجنوبية مثل زينب القادمة من غويانا، ومن أوربا أيضاً.

وقالت المديرة، وهي امرأة صغيرة الحجم ترتدى نظارات، رقيقة، في الأربعين من عمرها، أو ربما في الخمسين، فكيف تستطيع أن تعرف تحت كل هذا (الكاموفلاج)؟

ـ عموماً من بين المسلمين الذين استقرت عائلاتهم في إنجلترا أو فرنسا أو السويد أو ألمانيا أو غيرها وفي الآونة الأخيرة استقبلنا كثيراً من البلغاريات، ومن البوسنة، وكلهن سعيدات بأن يستعدن هوياتهن في الإسلام.

وللإيرانيين وجود قوى في يوغوسلافيا السابقة، حيث يقومون ببناء وتمويل كثير من المساجد في البوسنة المسلمة التي مزقتها الحرب الأهلية. وفي هذا الجو تجرى احتفالات في سارايفو تنظمها طهران، لإحياء ذكرى الصوفيين الإيرانيين العظام، يتحدث فيها سفير إيران شخصياً.

وأضافت المديرة «وهل تعرفين؟ إن بعض طالباتنا ممن تحولن إلى الإسلام، وبينهن عدد، وإن يكن قليلاً، من مسيحيات أوربا الغربية... أما عن تلميذاتنا من عائلات مسلمة سنية، أو غير شيعية، فليس في هذا مشكلة، لأن حكم الإسلام توحدنا جميعاً».

مسيحية حقا؟!

وبعد هذه الكلمات القوية لزمت الصمت، وأخذ جهاز التكييف يرتفع وسط صمت ثقيل.. ماذا أقول؟ إن المائدة التي تفصل بيننا كبيرة، ونحن ننتمي إلى

كوكبين مختلفين.. أن أمد يدى.. لم أود أن أمد يدى إليكن جميعاً.. وأن ننسى للحظة أننا تحت رقابة شديدة، وأن نتبادل المشاعر، ونضحك معاً.. وربما نقارن بين حياتنا، ونواجه حقائقنا.. وماذا أستطيع أن أقول عن حقائقى أنا؟...

وفجأة انطلق سؤال من شادور آخر، لعلها كتمته طويلاً.

- لورانس، هل أنت مسيحية.. أو شيئاً آخر؟

إن الكلمة لن تنطق أبداً لكن المعنى واضح وضوح الأفكار التى تجرى فى ذهنى. اطمئن ياسيداتي، فأنا لست يهودية، والصهيونية ليست على هواى، وأنا لا أغازل دولة إسرائيل.

- إننى بروتستانتية.

وتساءلت المديرة بدورها:

وهل تعتقدين أن كل هذا.. قم مدينتنا المقدسة ومدارسنا، وحياتنا المنغمسة تماماً فى الإسلام.. هل تعتقدين حقاً أن كل هذا يهم قراءك، لديكم فى أمريكا؟

- أنا لست أمريكية.

وأخذت تعدل مرة أخرى الشادور الذى لا يكف عن الانزلاق عن رأسها، وتلك حركة تقوم بها النساء هنا مائة مرة فى اليوم.. واستغرقت محدثتى فترة طويلة عن عمد فى هذه الحركة.. لست أمريكية؟ وكنت أشعر بحيرتها.

تحد

أما ساكورة فإنها زنجية أمريكية حقاً، جاءت كمسلمة إلى إيران مع أستاذها الذى تزوجته، «كى أهرب من بلد عنصرى، بلا روح، لا شىء غير المال والجريمة والجنس، أو تلك المسلسلات التافهة مثل دالاس وديناستى».

- ثورة إسلامية حقاً.. دولة تقوم على الإسلام حقاً، لقد خلب هذا لبنا على الفور. ولن ننسى أبداً زيارتنا الأولى، كان هذا منذ سبعة عشر عاماً، بعد الثورة

مباشرة، ثم عدنا بعد ذلك عدة مرات، إلى أن جاء اليوم الذى صحبنا فيه أطفالنا وقررنا أن نبقى هنا.

وبالنسبة لساكورة ـ التى قالت لى أنها تستطيع أن تتحدث الفارسية ـ يبدو العالم جميلاً ورقيقاً تحت سماء قم، فى غبارها المقدس وأتونها المقدس جداً.

ـ إن قم هادئة جداً، والجيران ودودون، ولا عنف هنا.

فماذا عن ذلك العنف النفسى الذى يرزح على الجميع هنا يا ساكورة؟

حين لقيتها صدفة للمرة الأولى كانت ساكورة تذرع الممرات الموحشة لجامعة فاطمى الطبية بحثاً عن شخص مالم أعد أذكره. ولن تجدن أبداً أيتها الفتيات مؤسسة أكثر جدية وأكثر نقاء فى إسلاميتها من مؤسسة فاطمى. أما أولئك الباحث عن أزواج فعبثاً يجئن هنا، فلم ألتق أبداً بطالب واحد، لا فى الممرات، ولا فى المعامل، ولا فى الفصول، ولا فى المكتبات، وكان الرجال الوحيدون الذين لقيتهم كناساً يدفع مكنسته، وحارساً فى زيه الرسمى يراقب المدخل، وبستانياً يعتنى بممرات الفناء الداخلى وهى أصلاً بغير حاجة إلى عناية.

مجمع ضخم خرج من بين الرمال فى عام ١٩٩٢ عند أطراف قم، إن هذه الجامعة الفريدة قاصرة على النساء، فالإدارة كلها فى أيدى نساء، والدروس تلقيها نساء، على الطالبات القادمات من طهران وأصفهان وتبريز وغيرها من المدن. وما من أجنبى بين طالباتها الستمائة، لكنهم قالوا لى إن هذا سيتغير إن شاء الله. مائة وخمسون أستاذة لا أقل، مدللات تماماً، يتقاسمن فيما بينهن تدريس كل ميادين الطب.

ـ كثيرات منهن يأتين بانتظام من طهران، إنهن إخصائيات كبار، نساء مشهورات.

ومضت مرافقتى تتحدث، فى اعتزاز بإسلامها، واعتزاز بتلك الأجنحة السوداء التى ترفرف فى الهواء وهى تسير.

ـ إنها صفعة فى وجه العالم.. تلك هى جامعتنا، رد على أولئك الذين يقولون إن الإسلام لا ينظر للمرأة إلا باحتقار، وأنه يقلل من شأن قدراتها وذكائها. إنها تحد لأولئك الذين لا يكفون عن ترديد أن الإسلام يحبسها فى منزلها...

وطيلة حديثها كانت مرافقتي تمسح بظهر يدها العرق المنساب على جبهتها التي يحيط بها شريط أسود سميك.

ـ ... وينبغي أن ترى مستشفانا على بعد عدة كيلو مترات من هنا! وهناك أيضاً لا يوجد سوى نساء، ودون تواضع زائف فإن الرجال يعجبون بعملنا، وحين يروننا نعمل يقفون فاغرى الأفواه، وبالطبع فإن مستشفى كله من النساء مائة في المائة موجه في المقام الأول إلى النساء، لكننا نعتزم أن نعنى ذات يوم بالرجال، أن نضع قدراتنا في خدمة الشعب، بما في ذلك أبأس البائسين، وأن ننقذ ضحايا الكوارث الطبيعية والحوادث، وضحايا الحرب لا قدر الله.

عبارات شاعرية! لكن سوء الفهم الذى أعقب ذلك هبط بمحدثتي من عليائها:

فقد سألتها: ما هي الأمراض الرئيسية (Main) هنا.

فأجابتني مستنكرة: ولكن.. ولكن ليس لدينا أمراض رجال (Men) «أمراض رجال»، الجنس، الإيدز.. في قم.. أى فكرة بشعة.

فرانسواز أوطرق

الرب غير المتوقعة

ـ بسم الله الرحمن الرحيم، أنا فرنسية، ولدت منذ أربعين عاماً.

هكذا قدمت فرانسواز نفسها لي في ذلك اليوم، لكي تسرع فتضيف:

ـ اسمي الإسلامي هو زهرة.

كان الجو حاراً، حاراً جداً، في طهران في بداية سبتمبر ١٩٩١، وكنت أنظر إليها وهي جالسة أمامي، منتبهة لأسئلتي، محدقة فيّ بزرقة عينيها الصافيتين، وحبات العرق تلتمع على وجهها، فقد جاءت على عجل، وفي طيات شادورها كان بعض الغبار مازال عالقاً.

إن فرانسواز برهان حي على أن أحداً لا ينبغي أن يبقى ثابتاً في يقينه، نعم.. حتى هنا في إيران.. لقد جاءت هنا بإرادتها وارتدت الشادور.. ووجدت السعادة فيه.

ولأن فرانسواز - زهرة قد هزت معتقداتي، وحركت شيئاً في أعماقي فقد وجدت مكاناً في هذه الصفحات، غير أن الله يعرف - وهذا ما أقوله عن ثقة - أنها لم تقنعني.. كما لم تستطع أن تقنع زوجها الأول، البسيط الطيب، هذا «الموظف في السكك الحديدية الفرنسية ووالد أطفالي» بأن يصحبها في آلام بحثها الميتافيزيقي.

كانت فرانسواز، في فرنسا، تعمل مساعدة اجتماعية طيلة اثني عشر عاماً.

- احتككت بكثير من الأجانب، واجتذبوني، فعبرهم كنت أعيش عوالماً أخرى.

وجاءت الاستجابات الأولى المترددة لهذا التعطش إلى «شيء آخر».

وقد مضى وقت طويل منذ ذلك الحين، وتزوجت فرانسواز للمرة الثانية ثورياً إيرانياً، غير حليق، لكنه مشذب أيديولوجياً، وحين سألتها عن ظروف لقائهما في فرنسا، ظلت فرانسواز غامضة، وبقيت نظرتها معلقة بعيداً في مكان ما فوق كتفي.

- لا أهمية لذلك، فليس لزوجي شأن بتحولي، فقد كنت أبحث بنفسي، أما هو فاكتفى بأن يشرح لي.. الإسلام! كأنما كان أحد يمد خيطاً من الذهب أمامي.. الإسلام! أخيراً هاهي الإجابات الحقة على كل تساؤلاتي.. وأدركت عندئذ أنني كنت دائماً مسلمة، فكلمة «الإسلام» تعني «التسليم لله»، وقد كنت دائماً خاضعة له، وبداخلي على الدوام ذلك الشيء الذي يدفعني لفعل الخير».

فرانسواز.. لكم حركت مشاعري، حتى لقد كنت أنسى كل هذه اللافتات والشعارات، كل هذا العرض السياسي الكبير الذي يدور حولنا باسم الرب، وبحثت في حقيبتك، وأخرجت محفظة، سحبت منها صورتين لولديك.. فرنسيان صغيران.. صبي وصبية، وأحياناً تأتي ابنتك من فرنسا لزيارتك، ففيم تفكر حين ترى نقابك الأسود، ومعطفك الأسود، وجواربك السوداء، بعيني

المراقبة الحادثين؟ تقولين إن ابنتك تفهمك، ربما.. ولكن ماذا عن الأخريات؟ ألم تقولي إن كل أسرتك تقريباً قد نبذتك، ولم تستطع أن تغفر لك اختيارك للمسجد بعد أن كنت قد أقمت طويلاً بالكنيسة؟

- لقد تركت الكنيسة لأن أحداً فيها لم يكن يستطيع أن يجيب على أسئلتي ولم أجد أبداً في الكنيسة تلك العدالة التي كنت أحلم بها - والتي مازالت أحلم بها.

وفكرة الاعتراف تثير حنقها.

- لن أعرى روحي أمام كاهن، بل كاهن فاسد! كلا!

- وهل الملالي أفضل؟

- إنك لا تفهمين، فسواء كانوا من الملالي أو حتى من آيات الله فإن أحدا منهم ليس أفضل مني في نظر الله، ولا أتوجه من خلالهم لكي أخاطب الله، وأنا أخاطبه مباشرة.

حسناً.. ولكن لماذا القرآن وليس الإنجيل؟

- لأن العيش مع الله في نظري يعني أن أعيشه في حياتي اليومية.. والإسلام يحيط بي دائماً.. إنه يملي عليّ ماأفعله، ومتى أصلي، وماذا أرتدي.

لكن الغرب..
هو أيضاً موزار

أعرف.. أعرف.. أنك تدفنين نفسك في هذا النقاب الأسود، لأن الرجال لا يفكرون إلا في «هذا». ولكن إذا كان الله قد خلق الشمس، أفلا يريد لها أن تداعب بشرتك؟ وماذا عن هذا الهواء الذي يرتعش حولنا؟ الحق أن جوهر الحياة هو الإغراء.. أعرف.. أعرف.. أن الغرب قد مضى إلى أبعد مما يجب، وأننا قد

خضعنا لطغيان المتعة... ولكن أن تختارى إيران.. وطغيان اللامتعة.. أن تشعرى ذات يوم بالإنهاك من كل هذه النظرات التى توجه لك لأنك رشيقة وشقراء.. إن أى امرأة مستنيرة لابد وأن تفهمك.. إننى ضائقة مثلك بعبادة الجسد. الغرب: مجتمع عار، مجتمع صاخب بموسيقى الروك، والفيديو كليب، والإعلانات، والمال، وبالنسبة لنا نحن النساء اللاتى يفترض أن يبقين مغريات حتى سن المائة كريمات مكافحة التجاعيد، التى لا تفعل أكثر من أن تبرز تجاعيد أرواحنا، ولكن لا تنسى يا فرانسواز أن الغرب الذى جئت منه هو أيضاً موزار...

لكنها لم تكن تصغى لى.

ـ إنك لا تفهمين.. لا تفهمين على الإطلاق، إنه الله.. أوامر الله، وملابسى هذه أمرنى الله أن أرتديها.

وكان صوتها يمتلىء بالجدية وهى تقول:

ـ منذ اللحظة التى ارتديت فيها النقاب شعرت بأننى كبرت أمام نفسى.

أما أنا فقد شعرت بالحيرة! فماذا يمكن أن أقول؟

شيرين أبادى..

محامية نصيرة المرأة

منذ لقائنا الأول.. بعد ظهر يوم خانق فى منتصف يونيو ١٩٩٧.. سرى تيار المودة بينى وبين شرين.

قالت فى البداية:

ـ ماذا تريدين أن أقول؟ إنى أشعر بسخط لا أدرى معه بما أبدأ، من الصعب أن تكونى محامية، ونصيرة للمرأة، فى جمهورية إيران الإسلامية.

غير أننى أشعر اليوم بقدر من الأمل، شعاع خجول يتراقص فى الهواء.. فرئيسنا الجديد محمد خاتمى يتمتع بذهن متفتح تحت عمامته، فلنرجو الله ألا

يسحبوا البساط من تحت قدميه.. أو ما هو أسوأ.. فلن أنسى أبداً منذ نحو عشر سنوات حين كان خاتمى وزيراً للثقافة أنه لم يتردد فى منح جائزة لجميلة شيكى الممثلة الشهيرة منذ أيام الشاه.. وكانت هذه إيماءة جريئة إذا تذكرنا أن الخمينى كان لا يزال حينئذ فى السلطة.

شيرين أبادى.. كم هى إنسانية.. وشجاعة.. كم من المآسى مرت بها خلف ستائر مكتبها المسدلة بعناية؟ والمكان ملىء بكل شىء.. كتب القانون بالطبع، وإنما أيضاً نداءات الحد من التسلح، وأشعار، وروايات، ومؤلفات من كل نوع أكثرها بأقلام أصدقائها، وأغلبهم من بين المائة وأربعة وثلاثين مفكراً الذين وقعوا بيان ١٩٩٤ الشهير الذى يطالب بمزيد من حرية التعبير.

ووسط الأكوام المتراكمة فى فوضى الحياة اليومية توجد تلك الوثائق الطنانة التى كتبتها شخصيات كبيرة فى مجالس بعيدة، والتى يفترض أنها تحمى الصغار... الأطفال.. وشيرين تحب الأطفال وتدافع عنهم بأسنانها وأظافرها، وهو نضال جلب لها كثيراً من الأمجاد، ومن بينها هذه اللوحة المحفورة التى تلتمع تحت ضوء مصباحها.. جائزة «مراقبة حقوق الإنسان لعام ١٩٩٦».

وينبغى أن نقول إن أمام شيرين الكثير من العمل فى بلادها، فباسم الإسلام ألغى الثوريون بجرة قلم المحكمة التى كانت مخصصة للأحداث، فالفتيات يحاكمن الآن بنفس معايير الكبار حين يبلغن التاسعة من العمر، أما بالنسبة للأولاد فالسن هى الخامسة عشرة.. أمر طبيعى للغاية!

قاضيات: نعم أو لا!

كانت شيرين من بين أول خمس قاضيات عين فى أيام الشاه.

ـ وعقب الثورة مباشرة خلعنا الملالى من مناصبنا بحجة أن الإسلام يحظر تعيين المرأة قاضية، ولما لم يعرفوا ماذا يصنعون بنا فقد ارتجلوا لقب المستشارات،

وقاومنا، وأثبتنا بشكل قاطع أن القرآن لا يحوى مثل هذا الحظر. وأخيراً اعترفوا بأنهم كانوا على خطأ فى تفسيرهم.. والنتيجة؟ لا شىء.

... أنا.. يا صغيرتى أنا... ألا ترين شيئاً قادماً؟ لا أرى غير قوانين.. وما من امرأة قاضية تحت المناوات(*).

ـ وأخيراً سئمت، وتركت وزارة العدل، وفتحت مكتبى هذا.

ورغم أن رجلاً كان يصحبنى فقد استقبلتنا شيرين ورأسها عار.

ـ استريحى أنت أيضاً! انزعى عنك خمارك!

ولكم شعرت بالسعادة وهواء المروحة يداعب شعرى، السعادة أن أجد أمامى امرأة حقيقية، وجه ملىء يكاد يكون طفولياً تحت شعرها البنى، وهى تبدو أصغر من سنها الذى بلغ الخمسين، إنها متزوجة من مهندس، ولديها ابنتان، إحداهما تبشر بالفعل، إن لم يزد عمرها عن الثالثة عشرة، بأن ترفع ذات يوم راية العدالة التى ترفعها أمها.

وكان والد شيرين ـ وهو أيضاً محام ـ هو أستاذها الأول.

ـ وأول المعجبين بى، فقد كان أبى فخوراً بى.

وفوق أحد رفوف المكتبة وضعت شيرين النظارة التى كان أبوها الحبيب يرتديها فى شهور حياته الأخيرة، لقد أصبحت رمزاً، فمن خلف زجاجها الذى يحيطه إطار عتيق كان هذا الرجل الصادق ـ الذى سيظل دائماً نموذجاً أعلى لابنته ـ ينظر إلى العالم من حوله.

(*) استشهاد بتصرف عن أقصوصة «اللحية الزرقاء» بقلم شارل بيرو... ويقول النص الأصلى:
آن.. آن.. يا صغيرتى
هل ترين شيئاً قادماً؟
لا أرى غير الطريق.. يمتلىء بالغبار
والعشب يزداد اخضراراً (المترجم).

عالم العمل:

مفتوح على مصراعيه للمرأة

هذا العالم الذى أخذ ينكمش اليوم كثيراً، خاصة بالنسبة للمرأة، اللهم إلا باستثناء واحد ـ وتلك مفارقة أخرى فى بلد يمتلىء بالمفارقات ! فعالم العمل مفتوح على مصراعيه لهن، والمرأة موجودة فى كل مكان: فى المكاتب والمصانع والجامعات والصناعة والتجارة والعلوم والفنون، وأمام الكاميرا وخلفها.

فى تصميم الأزياء.. فى (الموضة).. نعم فالجمهورية الإسلامية تضم كتائب من المصممات الشابات لأزياء أنثوية للغاية.. لا ترتدى إلا داخل البيوت، وهى بيوت لن تعدم فرصة للتلألؤ حين تحتك بشرنقة الأثرياء فى شمال طهران.. شقق فسيحة مذهبة، وفيلات بحمامات سباحة زرقاء، وقصور بيضاء بأعمدة تحيط بها سلالم ضخمة كأنها خارجة من فيلم «ذهب مع الريح».

وصالات التحرير بدورها تمتلىء بالنساء، لا فى الليل ينكسن ويمسحن، وإنما صحفيات يجلسن خلف أجهزة الكمبيوتر، أما عن المجلات النسائية فليست جميعها تحذو حذو العمائم.

صحيح أن مجلة «المرأة اليوم» العاقلة أشبه بامرأة الأمس، ولكن فى الطرف الآخر تتناول مجلات أخرى مثل «زانان» بشجاعة مواضيع حساسة كالعلاقات بين الرجل والمرأة وحتى الانتحار.

وتضم مجالات البحث العلمى الإيرانى المتقدم بدورها نجمات، مثل عالمة الفيزياء الفلكية بتول جازبى.. التى لا تعبأ كثيراً بمظهرها على الأرض، بنقابها ونظارتها، فهى لا تحيا إلا من أجل دراسة ذرات الغبار بين الكواكب. ولم يفت فى عضدها أبداً أو يفتر حماس هذه المرأة العنيدة إغلاق الجامعات فى السنوات بين ١٩٨٠ و١٩٨٣ بسبب الاضطرابات والعصيانات الإسلامية، ولا العزلة السياسية التى عانت منها إيران وحرمت جامعة العلوم والتكنولوجيا فى طهران سنوات طويلة من بعض المنتجات والأجهزة اللازمة للغاية لأبحاثها.

- وإذن فهل ستذهب المرأة بالشادور ذات يوم إلى القمر ؟

وضحكت ، ثم قالت بحماسة فكاهية غريبة :

- طالما أن الرجال قد بدأوا منذ الثورة ، يحترمون تفكيرنا على هذه الأرض . . . فلنستفد من ذلك الآن .

إنها طائر نادر . . . بتول هذه ، لا يثير رهبتها كثيراً تفوق الرجل ، لأنها مقتنعة ، علمياً ، بتفوق المرأة ، .

- إننا نستطيع أن نفعل كل ما يفعلون ، أما هم فلا يستطيعون أن يفعلوا كل ما نفعل . . . إنها معادلة بسيطة . . أليس كذلك ؟

ولأعلنها صراحة لبعض الرجال وبعض النساء . . . إن الثورة قد فتحت صباحات مشرقة ، إن لم تكن قد بدأت تغرد بعد ، فإن موسيقى المستقبل الهادئة تنبعث منها . . . وبالنسبة للفلاحين والفلاحات مثلاً ، الماء والطرق والمدارس والعيادات ، ولم تنس الحكومة حتى القرى النائية ، الضائعة بين سفوح الجبال أو فى أعماق الصحارى وقد بدأت برنامجاً هيدروكهربياً طموحاً .

ورغم أن كثيرات من صديقاتى يشعرن بالحساسية تجاه الملالى إلا أنهن لا ينكرن عليهم بعض المزايا .

- انظرى إلي هذا الفلاح الذى كان حين يتحدث عن امرأته يقول . . . « البقرة » ؟ إن هذا الرجل نفسه يطيع اليوم أوامر المهندسات اللاتى دربتهن الثورة . لكن المحامية شيرين أبادى تلقى بالماء البارد على هذا الحماس .

- كل هذا جميل . . ولكن حين نأتى إلى ما يتعلق بالأسرة والقواعد الاجتماعية فإن القوانين الإسلامية بتفسيرها المتخلف تعرقل خطى المرأة . ففى أيام الشاه لم يكن مسموحاً للرجل أن يتزوج بأكثر من امرأتين ، وكان عليه إذا أراد أن يعقد زواجه الثانى أن يقدم للمحكمة أسباباً مقنعة : « إن زوجتى الأولى عقيم ، أو مريضة مرضاً لا شفاء منه ، أو ترفضنى ، أو تركت منزل الزوجية » . . وكان الرجل والمرأة متساويين عملياً فى مسألة الطلاق ، فأيهما يستطيع أن يطلب الانفصال شارحاً للقاضى أسبابه .

- والآن ؟

ـ تسود الشريعة بأكثر تفسيراتها ضيقاً وتزمتاً، ويستطيع الرجل أن يتزوج أربع زوجات دون أن يقدم تبريراً، وأن يطلقهن ببساطة دون أن يُسأل عن السبب. صحيح أن المشرع قد أضاف منذ نحو عشر سنوات تعديلاً للقانون، يلزم الزوج بأن يدفع شيئاً لمن طلقها، لكنه مبلغ ضئيل، يحسب على قدر السنوات والخدمات التي قدمتها ـ وكأنها خادمة: كذا مقابل غسيل ملابسي وكذا مقابل إعدادها لطعامي.. وأياً كانت ظروف الانفصال فإن الأطفال من حق الأب دون مناقشة: من سن سنتين بالنسبة للولد وسبع سنوات للبنت.

ـ ولكن ماذا تقول النساء اللاتي وصلن إلى مناصب رسمية؟ وأصبحن نائبات في البرلمان؟

ـ فلننتظر لنرى، فحتى الآن لم يفعلن أكثر من ترداد نفس العبارة.. هذا هو الإسلام.. هذا هو الإسلام، هذا هو الإسلام..

وفتح باب المكتب، ودخل منه رجل ورائحة القهوة، وملأ الرجل الفناجيل ثم اختفى كالقطة، بنفس الحرص الذي دخل به.

علامات استرخاء

تكررت الطقوس نفسها بعد عدة شهور، حين هرعت في يناير ١٩٩٨ لرؤية صديقتي الباسوناريا: المكتب والمكتبة والرجل الذي يقدم القهوة... ولكن شيئاً ما قد تغير.. أليس كذلك يا شيرين؟ لقد نشرت وكالة الأنباء الإيرانية منذ قليل نبأ أكدته الصحافة الأجنبية، أفلم تعين الجمهورية الإسلامية قاضيات؟

ـ مجرد دعاية! صحيح أنهم نقلونا من المكاتب الخلفية إلى قاعة المحكمة، ولكن هذا لا يجعل منا قاضيات، فما زلنا دائماً مستشارات، ولكن علينا بالصبر... فلعل رئيسنا الجديد يتحرك بخطى بطيئة خوفاً من الأصوليين، لكنه يتقدم ويتقدم... اذكرى المظاهرة التي نظمتها في سبتمبر الماضي، إنها سابقة من نوعها، وما من شرطي! ولم يلق القبض على أحد..

وتقول شيرين إن الآلاف ـ وأغلبهم من النساء ـ قد اندفعوا إلى الشارع ذلك اليوم مطالبين بتعديل القانون، إثر فضيحة حكم صدر: فقد قتل رجل ابنة زوجته التي تبلغ الثامنة، ونتيجة لعيب شكلي أطلق سراحه.

وثمة علامة أخرى على تخفيف القيود في نظر المحامية، وذلك أيضاً بسبب وجود الرئيس خاتمي على رأس الدولة: تسامح السلطات تجاه الخمسين من المفكرين الذين تجاسروا ـ ومن بينهم شيرين نفسها ـ على توجيه النقد في رسالة مفتوحة إلى المرشد الروحي الأعلى للجمهورية الإسلامية آية الله خامنئي.

ففي قم.. المدينة المقدسة يعيش واحد من آيات الله اسمه منتظري، كان من قبل مقرباً للغاية من الخميني.. ومنذ بضعة أشهر، في عام ١٩٩٧، تجاسر استناداً إلى وصية الإمام والفقه الشيعي على المنازعة في حق خامنئي في حمل لقب المرشد الروحي الأعلى.. وجر عليه هذا المتاعب، فقد هاجم بعض الغوغاء المزعومين بيته ونهبوه وحرقوا كتبه. وكنت وأنا أصغي لشيرين استرجع ذكرى منتظري، أو بالأحرى تلك الصورة الضخمة التي وضعها مؤيدوه في مكان بارز على جدار منزله في قم، والتي أراني إياها دليلي بسرعة ونحن نمر، وقد اكتسى وجهه بهذا التعبير التآمري الذي يتخذه أحياناً دون أن أفهم السبب، وفكرت حينئذ أنه أحد أسرار إيران، وتركت الأمر عند هذا الحد.

أما الآن فإنني أفهم.

ومضت المحامية تقول:

ـ ومن بين هؤلاء الخمسين مفكراً لم يلقوا القبض إلا على إبراهيم يزدي أحد المعارضين القدامى وثار غضبنا.. لماذا هو؟ ولماذا هو وحده؟ ولماذا لم يقبض علينا نحن؟ وقد طالب يزدي بمحاكمة علنية، وكم كانت دهشة الجميع لأنهم سمحوا بذلك، ففي الماضي كانوا يختطفونك، ويحاكمونك في جلسة سرية... حيث يتقرر مصيرك.

النساء الرسميات

النساء الرسميات: في كل بلد أزوره كن في انتظارى.. ويوضعن في برنامجى، حول قدح من الشاى أو القهوة والبسكويت المعسول كابتساماتهن... والجو فيما بيننا متفاوت.. أحياناً ما يكون حاراً ودياً وأحياناً ما يكون متوتراً ومتحفظاً، حين تختفى الأخوة،وللأسف، خلف السياسة.

وهكذا كان الأمر في إيران.. مع بطلات الجدال الأيديولوجى الإسلامى: وإذا كان إيمانهن يثير انفعالى فإن تعصبهن يثير ضيقى، حين يقلن مثلاً «إن فرض النقاب على الأجنبيات أمر لا يناقش، فالإسلام هو الإسلام»... ولكن في حدود علمى فإن أى مسلمة تزو ر الغرب لم يفرض عليها لبس المايوه البكينى.. وليغفر لى الله هذا الرد، الذى يكشف مرة أخرى عن افتقارى إلى السمو الروحى.

ديسمبر ١٩٨٥..

الحرب والثورة: عزام طاليخانى

كانت عزام طاليخانى أول امرأة بارزة أجرى حديثاً معها، في طهران في عام ١٩٨٥ في وقت كانت إيران فيه تفور بالثورة أكثر من الدين: من ناحية المدينة وقد غزاها حرس شباب يرتدون السواد، بعضهم بلحى، وبعضهن بالشادور، ومن الناحية الأخرى الجبهة، الحرب مع العراق.. فصائل حرس الثورة تطوف عبر العاصمة تراقب الملابس غير السليمة سياسياً، وأعينهم على الأرصفة دائماً، وسياراتهم «النيسان» البيضاء التى تحمل شعار الجمهورية تتلوى في الشوارع تكاد على الدوام تسبب الحوادث، لكنهم مطهرون من الخطايا دائماً، فالله يغفر لأولئك الذين يطوفون من أجله كل شيء، حتى القيادة المتهورة.

وكانت عزام طاليخانى وشبيهاتها عندئذ منغمسات بحرارة في النضال من

أجل تحرر المرأة، خطت عزام خطوة كبيرة من أجل ا لقضية حين رشحت نفسها لرئاسة الجمهورية ـ وإن لم تنجح بالطبع .

وهى رمز قوى لأنها ابنة واحد من كبار الشوريين الأوائل، ومؤسسة صحفية سياسية ودينية أو دينية سياسية هى «رسالة هاجر» . وقد استقبلتنى عزام فى يوم رمادى من شهر ديسمبر، فى مكان غريب . . قصر أسقفه من المرايا حول إلى مكاتب متقشفة، ينتقل بينها حرس الثورة المسلحون من غرفة إلى أخرى، وهم يحكون الأرض بأحذيتهم الثقيلة .

كانت الرمز جالسة كأنما على العرش، محجبة حتى عينيها، وكان الجميع ـ رجالاً ونساء ـ يعاملونها باحترام شديد، وهذا أقل ما يجب لأن عزام قد ذاقت السجن الإمبراطورى حتى الثمالة، متابعة فى هذا خطى أبيها الشهير، آية الله محمود طاليخانى عدو الشاه اللدود .

وبعد أن ضغط إصبع مجهول فى خفر على زر جهاز التسجيل ـ فهذا الصندوق الأسود الموضوع على المائدة سمة تقليدية للأحاديث الرسمية ـ . . . استدارت عزام نحوى وسألت المترجمة :

ـ من أين جاءت ؟

من سويسرا

ـ . . . حسناً . . وإذن فأنت تعرفين مدام مونتمولان .

ماذا ؟ ماذا تصنع هنا هذه الأسرة البورجوازية السويسرية العريقة ؟ كان كل شيء يبدو كمهزلة، فقررت أن أدخل اللعبة، وأجبتها بلهجة المرأة الخبيرة : «أيهن ؟ أى مدام مونتمولان ؟ من أى فرع للعائلة ؟»

ـ أى فرع ؟ وكيف لى أن أعرف فرعها ! إنما أحدثك عن كتابها !

. . . .

ـ ماذا ؟ ألم تقرئيه ؟

وهرع أحد المساعدين يبحث عن الكتاب، وياالخجلى حيث ظهرت كنصير امرأة زائفة . لقد وضعت مواطنتى سيمون فالدر دى مونتمولان كتاباً عن حقوق

المرأة السويسرية، وأنا لا أعرف شيئاً عنه.

. . .في حين أن ـ بعض المناضلات في صفوف اتحاد المرأة المسلمة في جمهورية إيران الإسلامية ـ على حد قول عزام لم يقرأن الكتاب بالفرنسية فحسب، بل وترجمنه إلى الفارسية «حتى تستطيع سلطاتنا أن تستلهمه».

فبراير ١٩٩٧:
فاطمة رافسنجانى الابنة الأولى
للرئيس السابق

وقفنا مراراً أمام نقاط التفتيش والأزياء الرسمية.. رغم أنه كان من الواضح أن سياراتنا رسمية، وتتابعت نقاط التفتيش على طول الطرق الواسعة المحاطة بأشجار باسقة والمؤدية إلى قصر سعد أباد، ففي هذا المبنى الوردى ذى الطراز الأوربى القائم فى قلب طهران، والمقام فى حديقة مليئة بنافورات المياه وتغطيها أشجار الصنوبر كالمظلات يستقبل المسئولون الإيرانيون الشخصيات الأجنبية.. وكانت فاطمة هاشمى رفسنجانى الابنة الكبرى لرئيس الجمهورية حينئذ فى انتظارى.

كانت سجادة فاخرة تغطى الدرج الممتد من الممشى حتى البوابة الرئيسية. وفى الداخل كانت سجاجيد أخرى من ألف ليلة وليلة تلون الأرضية المرمرية بأسرها، وثريات ثقيلة تسيل منها دموع زجاجية، وأثاث فرنسى، و(تابلوهات) فارسية، وأبواب مزينة برسوم الزهور والطيور بطريقة تقليدية ساحرة أو بالية حسب نظرتك للأمور.

ولكن أين ذهب التقشف الثورى؟

إنه يتجسد فى هذا الشكل الغائم الذى يتقدم نحونا، وفى أثرها مترجم عن

الفرنسية، ومن خلف الحجاب الأسود كانت تطل ملامح رقيقة، يعلوها قدر من (الشقاوة). ومع فاطمة كنت أكاد أشعر أحياناً بالتضامن! ذلك التضامن الحق الذى يتجاوز كل الادعاءات.. وكانت فاطمة ـ كشقيقتها فايزة عضو البرلمان ـ تهاجم التفسيرات المجحفة للإسلام، بل لقد تمتمت بشكل عابر أننى فى نهاية الأمر قد أكون على حق، فمن غير العملى أن تتحركى بكل هذه الأحجبة.

وجلسنا... واستقبلتنا، أنا وفاطمة والمترجم الملتحى، مقاعد من طراز لويس السادس عشر مغطاة بالحرير، ومن خلف النوافذ الفرنسية الطويلة تلتمع خضرة الحديقة.

وقصة فاطمة هى بدورها قصة أسرة من أسر المقاومة، والأغلال والقيود، وصرير المفاتيح، ورنين الأبواب المعدنية:

ـ طيلة طفولتى كنت أرى أبى يأتى ويذهب، لم يكن إلقاؤه فى سجون الشاه ينتهى. وقد تقاسم أبى و«حمايا»، أبو زوجى، نفس الزنزانة.. مما يوطد العلاقة كما تعرفين.

إنها فى السادسة والثلاثين، ولديها طفلان، وهى تدير رابطة تضامن المرأة فى إيران:

ـ اطمئنى.. فكثير من روابط المرأة الإيرانية غير المسلمة تتعاون معنا.. من الزرادشتيات واليهوديات والمسيحيات والأرمنيات والمسيحيات الآشوريات ومسيحيات الكنائس الغربية...

ويبدو أن مهمة الرابطة شاقة للغاية.. رغم كتيبها الذى يكاد يكون شعراً بعنوان «الجنة تحت أقدامهن»، بغلافه الوردى، فالأرقام التى يحويها أبعد ما تكون عن الجنة! أيرجع ذلك إلى قسوة حياتهن؟ فرغم سنوات الحرب الثمانية ضد العراق التى استنزفت الجيش فإن عدد النساء فى إيران أقل من عدد الرجال: ١٠٠ : ١٠٦,٧ كما تقول الإحصاءات الرسمية فى عام ١٩٩١.

وتنهدت فاطمة:

ـ وأخيراً... فإن المرأة أشد دأباً وأكثر صبراً من الرجل... ومن يعلم فربما ذات يوم...

ربما ذات يوم.. تصبح امرأة رئيسة للجمهورية الإسلامية؟ على حد قول الرئيس السابق رافسنجانى ليس هناك ما يمنع من ذلك، ففى اللغة العربية تعنى كلمة «رجل» رجلاً لا أكثر، أما فى اللغة الفارسية فإن الكلمة تعنى ـ حسب السياق ـ «رجلاً» أو «شخصية سياسية». ومن ثم فإن كلمة «رجال» فى الدستور الإيرانى تشير إلى كل الشخصيات السياسية؛ رجالاً ونساءً ـ ومن هنا إلى رئيس أو رئيسة الجمهورية! غير أن آمال المرأة أحبطت أثناء الانتخابات الرئاسية فى عام ١٩٩٧، حين أزاح حكماء مجلس الحراس الاثنى عشر تلك التفرقة اللغوية، ففى نظر هؤلاء المفسرين الملهمين يتحدث الدستور عن رجل دولة لا عن امرأة دولة. ومن ثم كان على المرشحات أن ينسحبن.

فبراير ١٩٩٧:

فايزة رافسنجانى والدورة الأولمبية النسائية الإسلامية

أربعة وثلاثون عاماً، وطفلان.. إن فايزة رافسنجانى أخت فاطمة الصغيرة لا تنقصها الروح، فمقعدها فى البرلمان ـ فهى نائبة ـ يتطلب بالتأكيد جهداً، أما إطلاق أول دورة أولمبية إسلامية عالمية للمرأة فشىء آخر!

وكل شىء أبيض فى مكتبها العالى فى شمال العاصمة.. الجدران.. والستائر.. وضوء الشتاء البارد.. وفايزة وحدها هى التى تبدو سوداء، وهى تجلس فى ثبات عاقدة ساقيها، وفى قدميها حذاء رشيق ذو كعب عال يبدو من تحت حجابها.. وعلى الجدار صورة الفرنسى بيير دى كوبرتان الذى أحيا الثورة الأولمبية، وإلى جوارها ملصق صغير يحمل صورة شابة مغطاة من رأسها حتى قدميها، وهى تجرى رافعة الشعلة الأوليمبية.

وقالت فايزة فى حنق:

ـ تصـــوري أنه في دورة أطلانطا عـــام ١٩٩٦ لم ترسل ثلاث وثلاثون دولة إسلامية نساء، أما إيران نفسها فإن من المخجل أنها لم ترسل سوى لاعبة واحدة.. لاعبة رماية يمكن أن تتبارى وهي مرتدية الشادور، على خلاف الرياضيات الأخرى. فالإسلام يحظر على المرأة أن تبدو أمام الرجل بثياب الرياضة غير المحتشمة، لكن هذا لا يمنعنا من التسابق.

وتصحيحاً لهذا الظلم نظمت فايزة في عام ١٩٩٣، في طهران، أول دورة أولمبية موحدة الجنس في التاريخ، بين رياضيات قادمات إلى إيران من ماليزيا وتركمانستان وباكستان وقرغيزيا وبنغلاديش وسوريا. وفي عام ١٩٩٧، وفي المدينة نفسها، كررت فايزة التجربة، وخلال الفترة كانت صفوف المتباريات قد تضخمت (إذا جاز القول) فضمت متسابقات من أربعة وعشرين بلداً في نحو عشر رياضات: الكرة الطائرة وكرة السلة وتنس الطاولة وكرة اليد والسباحة والعدو والرماية والكاراتيه.

وكدت أنسى الشطرنج، وهي البطولة الوحيدة التي دعي إليها المصورون، إذ من الواضح أن اللاعبات لسن بحاجة إلى نزع نقابهن لكن يدفعن القطعة على رقعة الشطرنج، أما المباريات الأخرى التي ترتدي فيها المتباريات الثياب الرياضية غير المحتشمة فقد دارت ـ حياء ـ خلف الأبواب المغلقة. فالدورات الأولمبية الإسلامية للنساء دورات محظور فيها التصوير، دورات يرعاها الله لا كوكاكولا.

ديسمبر ١٩٩٧:

زهرة شوجاي مستشارة الرئيس خاتمي لشئون المرأة.

كنا في شهر رمضان، وكنت أحس بها نافذة الصبر متعجلة العودة إلى بيتها، فساعة الإفطار التي تعلن في كل يوم بالثانية على كل موجات الإذاعة والتليفزيون

معاً تلاحقنا في ساعة بعد الظهر هذه.. فقد تكون مستشارة للرئيس لشئون المرأة وتقدميه لكن عليها أن تكون في هذه الساعة في مكانها الصحيح.. أمام موقد المطبخ.

ورغم هذا فقد استقبلتني زهرة بصبر، سياسية حقة في خدمة قضيتها.. ومساعدات شابات يحمن حولها.

إنها نصيرة إسلامية للمرأة، وهي متزوجة من أحد «العلماء»، أستاذ للفقه وإمام جامعة طهران، والإسلام هو التربة الخصبة والثورة عقيدتها، الثورة الشعبية، ثورة الشعب، الثورة من طراز «يالابسات الشادور.. اتحدن».

ـ كانت هناك بالفعل عضوات في البرلمان في أيام الشاه.. لكنهن على أي حال كن من الصفوة...

وراحت تردد الشائعات المحفوظة: تضاعف الميزانية المخصصة للمرأة إلى عشر أمثالها، وأخيراً المشاركة في مجلس الوزراء؛ مدارس البنات وحملات محو الأمية تتزايد، والمراكز الثقافية، والمراكز الرياضية، ومشاريع لتفسيرات جديدة للقوانين، وخاصة بالنسبة للطلاق، بحيث تكون حضانة الطفل لأجدر الأبوين وليس للأب أوتوماتيكياً، وقدراً أكبر من العدل للأرامل والمطلقات.

ـ ففي كل لحظة تمر ثمة شيء يتغير في إيران بالنسبة للمرأة.

بحق الله توقفي! وفجأة كان بين يدي كتاب سميك ثقيل: سبعمائة وخمسون نصاً قصيراً، معها سبعمائة وخمسون صورة لسبعمائة وخمسين امرأة ترتدي الشادور... لقد استغرق إنتاج الطبعة الأولى التي خرجت لتوها عامين من الأبحاث عن أبرز الشخصيات النسائية الإيرانية.. وعلى طول الصفحات أوجه رقيقة لمثقفات، ولكن أيضاً وجوه كأنها صبت من الطمي، تحية لأولئك اللاتي وهبن أطفالهن، لحمهن ودمهن، لأرض إيران، للثورة والحرب.. شكراً لك نيابة عنهن يا سيدة شوجاي.

أوائل يناير ١٩٩٨:

معصومة ابتكار نائبة الرئيس

طاووس محشو معلق على زاوية حائط المكتب الرسمي لمعصومة ابتكار، بصدره الأزرق وذيله المرقش الأخضر والأزرق الذى يبلغ طوله مترين ونصف متر.

ـ بسم الله الرحمن الرحيم، إن هذا الطاووس يرمزللفردوس الفارسى لكن جماله يذكرنا كذلك بأهمية حماية الأنواع التى خلقها الله.

وقد عينها الرئيس خاتمى نائبة للرئيس فى أغسطس ١٩٩٧، مع سبعة آخرين من نواب الرئيس كلهم من الرجال، وكلفت عالمة المناعة الشابة هذه ـ التى درست فى أمريكا وتتحدث الإنجليزية بطلاقة ـ بمهمة حماية البيئة.

ـ فى مؤتمر طوكيوالأخير بشأن مخاطر تغير المناخ بفعل الإنسان لم نكن سوى حفنة من النساء، ثمانى عشرة امرأة تائهات وسط ممثلى مائة وستة وخمسين بلداً، نعم ثمانى عشر امرأة.. وإنه لعدد ضئيل إذا تذكرنا أننا نحن اللاتى نهب الحياة وينبغى أن نكون أول المعنيين بالحياة ـ والموت ـ على الأرض. غير أنى مفعمة بالأمل، فأنا أرى مزيداً من النساء يعين فى مناصب هامة وهل هذه التحذيرات المثيرة للقلق التى انطلقت فى طوكيو تقربنا غريزياً من بعضنا بعضاً.

إنها فى بداية العقد الثالث من عمرها، بعينين لوزتين تحيطهما هالات سوداء، وشفاه مليئة، وأسنان جميلة شديدة البياض، وهى تبتسم ابتسامة واسعة لكنها تتحكم فى نفسها تماماً، ناعمة فى حديثها كحرير خمارها اللؤلؤى المعقود بدبوس تحت الحجاب، والذى يحيط بوجهها ويخفى ذقنها.

وأسّرت لى نائبة رئيس إيران أنها لم ترتد هذا الزى الإسلامى إلا منذ توليها المنصب، كما يرتدى الأميرال شارات رتبته.

ـ إنه هويتنا الوطنية، ورمز لثورتنا.

وتطوف نائبة رئيس جمهورية إيران الإسلامية العالم كله ممثلة لبلادها، وقد حضرت فى أواخر يناير ١٩٩٨ المنتدى الاقتصادى الهام فى دافوس بسويسرا،

وهناك أمام القمم الثلجية اختلط حجابها الأسود بالحلل الرسمية وحقائب الأوراق التي يحملها كبار واضعي القرارات في كوكبنا.. وكانت هناك أيضاً هيلارى كلينتون السيدة الأولى في الولايات المتحدة.. هل التقيتا؟ سر من أسرار الدولة؟ أو ربما - من يعرف - سر من أسرار المرأة؟

هناك دراويش.. ودراويش

٢ يناير ١٩٩٨.. هبط الشتاء في الجبال، وتعرضت العاصمة طيلة الليل للرياح والثلج.. وليست لدى مواعيد هذا الصباح، فاليوم هو يوم الجمعة عطلة المسلمين، الذى لا يفضل كثيراً في كآبته يوم عطلتنا... فالصمت يسود الفندق والشوارع.. والقلق يتزايد.. وأسرعت باستقلال سيارة أجرة واتجهت إلى الجنوب نحو الأحياء الشعبية باحثة عن شيء من الحياة! ووجدتها والحمد لله في حى سوق «وحدة الإسلام» العتيق، في حواريه الضيقة التى شهدت الكثير والكثير حتى ليبعث فيَّ مجرد وجودى فيها الطمأنينة، في وسط بقايا (الموزايكو) الفيروزية الشاحبة، بين المحلات ذات الأبواب الخشبية، وأكوام البرتقال بلونهااللامع، وحمرة (اللابو)، وهو نوع من الجذور يباع في الشتاء، ويؤكل ساخناً حتى في الشوارع تماماً كما نأكل نحن الكستناء.

ووسط أبخرة الضباب التى ترتفع من الأرصفة برز فجأة شخص غريب الهيئة يرتدى معطفاً صوفياً بنياً رثاً، ويعلو رأسه غطاء بلا شكل، وعقد ثقيل مصنوع من قطع العملة المعدنية المثقوبة يتدلى حتى وسطه.

وهمس لى أحد التجار «إنه درويش.. إنه يتجه نحوك، ويردد اسم على مائة وعشر مرات، فهذا هو الرقم المقدس كما يقول».

ومازال الدراويش، الرواة الحقيقيون ومنشدو الأشعار الصوفية الشعبية، موجودين في بعض القرى، أما في المدن فحتى إذا كان البسطاء مازالوا يعتبرونهم

أحياناً من (الواصلين) فإن أولئك البؤساء - كهذا الذى يختفى الآن فى نهاية الشارع - يبحثون عموماً - فى المقام الأول - عن قوتهم.

بيد أن هناك دراويش ودراويش، فهذه الطوائف التى تلتف حول مشايخ طرقهم الموقرين قد انغرست منذ قرون وقرون فى نسيج إيران الاجتماعى، ولعلهم ازدادوا اليوم بقدر ما زادت عقيدتهم - صوفية مطهرة متحررة من وطأة الكهنة؛ تمثل ملاذاً للمؤمنين الذين يرهقهم الجمود الفقهى لملات الجمهورية الإسلامية، وغداة زيارتى للسوق حيث استأنفت روتين المقابلات والأحاديث همس لى صديقى مصطفى - الذى يعرف دائماً كل شىء - أنه يعرف واحداً من هؤلاء الدراويش:

- رجل أعمال ثرى، وتصورى أن ابنه واحد من زعماء حزب الله، أكثر أجنحة الثوريين تشدداً.

٨ يناير ١٩٩٨:

مفاجأة فى السى إن إن.

بقيت من ذكريات المؤتمر الإسلامى الكبير الذى عقد فى طهران فى شهر ديسمبر صفوف الرايات التى ترفرف أمام مدخل الفندق، واللافتات الكبيرة التى تنتصب فى الشوارع وقد بللتها الثلوج: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا»!

سرت أتخبط صباح ذلك اليوم حتى المكتب المركزى لوكالة الأنباء الإيرانية حيث كان ينتظرنى رئيس مجلس إدارتها السيد فريدون فرديندجاد، الذى لم يتحرك حين وصلت إلى مكتبه الدافئ وخرجت على قواعد الإتيكيت إذ خلعت معطفى - ولكن دون أن أجسر على أن أخلع الخمار الذى يحيط برأسى... فللجرأة حدودها حتى بالنسبة لأجنبية.. نصر ضئيل لكنه رفع معنوياتى، خاصة وأنه قد خيل لى أننى رأيت لمعة أشبه بالتضامن فى عينى المترجمة، المجبرة ككل الموظفين على أن ترتدى طيلة العام وأياً كانت درجة الحرارة عباءة طويلة بأكمام طويلة

ومعها الشادور و / أو غطاء رأس.. فمن حيث المبدأ ينبغي إخفاء الذقن ـ التي تؤدى إلى الرقبة وهى تعتبر منطقة إثارة ـ إلا أن الصدق يلزمنى أن أقول إنها كانت فى أغلب الوقت تبرز قليلاً متمردة من تحت القماش... أما الماكياج: فلا شيء.

وعلى أى حال فهانحن هنا، السيد فرديندجاد وأنا، لنتحدث عن الانفتاح؟ أفلسنا قبيل أيام من يوم الصفر؟ فبعد أن نادى الرئيس خاتمى «بالحوار بين الحضارات» ثم «بحوار انتقادى مع الاتحاد الأوربى» بدأ يستعد فى الواقع للمضى إلى أبعد، وسعياً إلى التغلب على دعاية الحقد التى ضربت بجذورها فى هذا الجانب وذاك منذ ما يقرب من عشرين عاماً أعد مفاجأة حقيقية ليوم ٨ يناير ١٩٩٨ بالتحديد: أن يتحدث مباشرة إلى شعب الولايات المتحدة ـ وإلى المثقفين بوجه خاص ـ عن طريق حديث يدلى به إلى قناة السى إن إن... الرمز الأمريكى بلا جدال.

السى إن إن المحظورة على المشاهدين الإيرانيين ككل القنوات التليفزيونية الأجنبية، فقد طورت (أطباق) الاستقبال بعد حظرها فى عام ١٩٩٥ فى نهاية جدال سياسى حار. لكن «التقية» ليست بنت اليوم.. فقد علقت آلاف، بل مئات آلاف، (الأطباق)، أما مختفية بين أغصان الأشجار الكثيفة أو خلف نباتات الشرفات.. وكما يقول البعض عن حق فإن «هذه الأطباق البيضاء الضخمة لا يمكن أن تخبأ فى الجيب، فإذا كانت قد مرت فلابد أن البعض قد سمح لها بالدخول إلى إيران».

ويقول المتفائلون «دعونا لا نفقد الأمل.. إن ثمة تغيرات فى الجو.. انظر إلى الكتب، وإلى الأفلام، إن الأمور تتحرك»... ولكن أياً كان الأمر فإن القنوات التى تلتقطها (الأطباق) مازالت ـ شأنها شأن الصحف الأجنبية التى لا تجدها فى الأكشاك أو المكتبات ـ تعتبر فى الدوائر العليا إذاعات مسمومة.

والدوائر العليا هنا هى بالطبع المرشد الروحى الأعلى للثورة على خامنئى الذى صرح عقب إدلاء الرئيس بحديثه التليفزيونى إلى الشعب الأمريكى بأن الوقت لم يحن بعد لاستئناف الحوار والمفاوضات مع الشيطان.

والحق أن الرئيس خاتمى ـ الرئيس الكاريزمى، الذى يعلق عليه الإيرانيون كثيراً من الآمال ـ ليست له كلمة لا على الأيديولوجية، ولا على الجيش، ولا على

الاقتصاد، ولا على تجار (البازار) الأقوياء.. إن ما لديه بالكاد قدر من النفوذ على بعض وسائل الإعلام. إنه محبوب.. لكنه وحيد.. وحيد في وجه اللاتي والذين ينتظرون الكثير منه... الفقراء أمام اشتعال الأسعار، والنساء أمام عدم المساواة، والشباب أمام قيود المحظورات، والمثقفون أمام الرقابة غير المتسقة.

فهل هو ضعيف؟ على أى حال فإن غلاة المتشددين فى الدوائر الداخلية يخشونه لروح الحرية التى يجسدها، ولعلهم يخشون أيضاً إذا خفت قبضتهم أن تولد ذات يوم هبات عنف مفاجئة من جانب شعب يشعر الآن أنه قد تعرض لنوع ما من الغش، فأن يحيا المرء في الدير أمر يمكن أن يتحمله، ولكن على ألا يكون عليه أن يعمل عملين لكى يستطيع أن يقيم أوده! وثورة أو لا ثورة فإن كثيرين يرون أن إيران قد عادت إلى هوتها القديمة، حيث الفقراء مازلوا فقراء (إن لم يكن أكثر فقرا)، والأغنياء (وكثير منهم جدد) يزدادون غنى.

ثورة إعلامية

مزيج من الأيديولوجية الإسلامية الثورية رغم أن حلته الخضراء الشاحبة قد لا تروق للمتزمتين - وفلسفة إدارة الأعمال الخالية من الروح («الإعلام ليس سوى ناتج، وعلينا نحن أن نعرف كيف نبيع إعلامنا للوكالات الصحفية الأجنبية ولرجال الأعمال») - ولم يتوقف رئيس مجلس إدارة وكالة الأنباء الإيرانية عن الحديث عن نفسه فيما يقرب من ساعتين من (المونولوج) الدائم، فى ذات الوقت الذى يدعو فيه إلى الحوار! - ... ولكن أليست هذه خطيئة كل المعلمين... وهو واحد منهم؟

فالواقع أن السيد فيرديندجاد يقوم - فى أوقات فراغه - بتدريس إدارة الأعمال والصحافة فى الجامعة، وموضوعه المفضل موضوع واسع النطاق هو: أين يقع الحد الفاصل بين الإعلام والدعاية؟ والدعاية فى نظره شر يتمثل فى «تقديم معلومات إلى الجمهور استناداً إلى نظريات السلطة القائمة فحسب»، فى حين أن «الإنسان بحاجة إلى معلومات حقيقية حاجته إلى الهواء»... أى اكتشاف!

ـ وكما ترين فإن ما نحتاجه في هذه المرحلة هو ثورة إعلامية، وخاصة على المستوى الداخلي، وهذا ما سعيت إليه على الدوام طيلة ست سنوات أدير فيها الوكالة، ولطالما رددت على مسامعهم.. أبعدوا السياسة عن هذا كله.. وكم كان هذا أمراً شاقاً، فالسلطات التي تعودت طويلاً على الإعلام الدعائي أرادت له أن يستمر دوماً، وصحفيو الوكالة المحترفون لا يكفون منذ سنوات طويلة عن قولهم إنني أمضي وقتي في لومهم.. أما عن صحفيي المستقبل.. أولئك الشباب الذين ولدوا مع الثورة، والذين حشيت رءوسهم بالنظريات فإن علينا أن نضع أقدامهم سريعاً على الواقع، وأن نعلمهم قواعد الاقتصاد، ونعدهم للعولمة التي ترسي قوائمها، ومن هنا تنبع أهمية مدرسة الإعلام التي أقيمت منذ نحو سنتين فحسب.

وأعقبت هذه المحاضرة على الفور محاضرة أخرى أشبه بالمحاضرات المدرسية:

ـ قفي يا ديونا واحملي كراسك وافتحي أذنيك! واعلمي أن لكل الثورات ثلاث مراحل: ١ ـ نشوب الثورة. ٢ ـ القضاء على كل من يحملون أفكاراً عتيقة ثم الاستقرار. ٣ ـ إقامة النظام الجديد وهيكلته وبناء مؤسساته.

سألته «فماذا عن إيران؟»

ـ لا تقاطعيني! ففي إيران استمرت المرحلة الأولى ـ التي اختمرت بالفعل طيلة العامين اللذين سبقا الثورة في عام ١٩٧٩ ـ حتى عام ١٩٨٠، حين نشبت الحرب التي فرضها العراق علينا، واستمرت المرحلة الثانية من عام ١٩٨٠ حتى وفاة الخميني في عام ١٩٨٩، وبدأت المرحلة الثالثة ـ الأكثر حساسية ـ مع وصول رافسنجاني إلى السلطة منذ ثمانية أعوام، ولا تنسى أن رئيسنا السابق قد جمع فترتي رئاسة.

ـ أليست سنوات رافسنجاني هذه بالتحديد هي التي يدعونها «سنوات البناء»؟

أحسنت أيتها التلميذة ديونا. والتمعت عينا مدرسي خلف نظارته المعلقة على أنف لا أستطيع أن أصفه إلا بأنه... أنف بوربوني.

واستطرد يقول «وهكذا فبعد سنوات كانت الانفعالات فيها هي التي توجه أعمالنا.. غدونا براجماتيين، وتحول قادتنا إلى مبدأ الأيدي المفتوحة».

وقلت في نفسي لعل أيديهم كانت مفتوحة.. لكنها سرعان ما انغلقت، فالحق

أن حكم رافسنجاني - الذى مازالت تركته ممتدة إلى اليوم في عالم الاقتصاد - قد اتسم في المقام الأول بشعار «الشغل هو الشغل» !

على حدود إسرائيل قرية تسمى «لا مكان»

وتوقف فردينجاد ليلتقط أنفاسه.. أتراني أستطيع أن أنبس بكلمة ؟ كلا... فقد عاد طوفان الحديث ثانية.

- يعتقد الغربيون أن التغيرات التي طرأت على إيران هي من فعل خاتمي، وخاتمي وحده، وهذا خطأ، فقد كان عملنا من أجل سنوات و...

فلتذهب اللياقة والأدب إلى الجحيم، واندفعت أقول «وهكذا فإن الزهرة التي زرعتموها أنتم وأصدقاؤكم قد أينعت، ولم يعد على الرئيس الجديد إلا اقتطافها ؟ !»

لكن مضيفي - ورغم أنه فارسي - لم يتأثر بشاعرية العبارة.

- زهرة ! أى زهرة ؟ الأحرى أن تقولي طريقاً واسعاً، فما أعددنا له هو طريق واسع...

طرق واسعة، لابد أن رئيس مجلس إدارة وكالة الأنباء الإيرانية قد قطع الكثير منها في السنوات الأخيرة، وطار من مطار إلى مطار، فهو يقول «لدى أصدقاء في كل مكان، وفي كل مكان التقط منهم بعض الأفكار».. في المقام الأول في جمهوريات آسيا الوسطى المجاورة، حيث أعاد إقامة الروابط التي دامت قروناً، وافتتح مكاتباً في كل منها.. فيما عدا أوزبكستان.. وفي بلدان جنوب آسيا وجنوبها الشرقي، وفي البلدان الإسلامية والعالم العربي كله، وكثير من المراكز في لبنان.. في بيروت وطرابلس وبعلبك وبالطبع في جنوب البلاد، حيث حصن الشيعة اللبنانيين الذين يساندهم حزب الله الإيراني، وهي منطقة يقصفها

الإسرائيليون طيلة سنوات .

ـ ويعيش أحد المتصلين بنا في قرية تقع على بعد خطوتين فقط من الحدود الإسرائيلية . . ما اسم هذه القرية ؟ فلتسميها اللامكان إذا أردت .

«عشرة أفواه وأذن واحدة»

وكانت مصر حجر عثرة أمام وكالة الأنباء الإيرانية ، فليس لديها مكتب فى القاهرة حتى الآن ، فقد ضاقت مصر ذرعاً بتصرفات المهووسين الدينيين ، وبمذابح السياح كتلك التى وقعت فى الأقصر ، وصورة إيران تبعث فيها الرعب ، وبالمثل أساءت قضية الإسلامبولى للعلاقات بين البلدين ، ففى قلب الشورة لم تتردد السلطات الإيرانية فى تسمية أحد الشوارع الرئيسية فى قلب طهران باسم الإسلامبولى قاتل السادات ، الذى حول إعدامه إلى شهيد من شهداء الإسلام فى نظرها ، ومازالت اللافتة التى تحمل اسم الإسلامبولى بارزة على الدوام .

وحدست أن فرديندجاد «يلتقط الأفكار» من أقرانه فى وكالات الأنباء الأوربية ، وليس بعد من وكالات الأنباء الأمريكية «لعدم وجود علاقات فى الوقت الحالى» . وفى أوربا تستعد وكالة الأنباء الإيرانية لافتتاح مكتبين فى بروكسل وفى جنيف ، بعد أن اختارت لندن مركزاً أوربياً لها . . إنها تحث الخطى إذن ، ولكن ـ كما يقسم فرديندجاد ـ ليس من إجل إثارة المتاعب .

ـ إن كل ما نريده هو أن تحترم خصوصياتنا ، وأن نعد مجموعة أخرى من بين مجموعات السديم الإعلامى .

وفى الختام يوجه فريدون فرديندجاد رئيس مجلس إدارة وكالة الأنباء الإيرانية اللوم العنيف للأمريكيين والأوربيين لأن «لديهم عشرة أفواه وأذن واحدة . . . إنهم يتحدثون ولا يصغون» .

ترى هل أصغى إلىّ هو ؟

تماماً كما لم يصغ إلينا أحد ، نحن القلة من الغربيين الذين دعوا إلى تلك الندوة

الغريبة التى نظمتها السلطات الإيرانية فى طهران فى عام ١٩٩١ ، وقدكنت مبعوثة من وزارة الخارجية فى بلادى، لكننى وجدت نفسى مقصاة فى ركن النساء فى نهاية القاعة... كانت أياماً غريبة.. وكان موضوع الندوة هو «الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة فى ١٩٤٨ / حقوق الإنسان فى القرآن: دراسة مقارنة».

ولم تقم السلطات الحالية رسمياً بإلغاء الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الذى أقره مجلسا البرلمان أيام الشاه، أفيلغى أحد شيئاً ليس موجوداً فى نظره؟

ولأعترف بأننا حين لوحنا براية العدالة المستلهمة من الأمم المتحدة من فوق المنبر تحت ذقون آيات الله الموقرين فقد أجابونا بحجج لها وزنها: «إن الله لم ينتظر عام ١٩٤٨ والأمم المتحدة لكى يملى على رسوله ضرورة احترام حقوق الإنسان، والواقع أن إعلانكم «العالمى» المزعوم لا يمكن أن يكون عالمياً، لأنه إنما استلهم القوى العظمى فى ذلك الحين».

واستطردوا قائلين: «إن أولئك الذين صاغوا الإعلان قد تربوا جميعاً فى ذات القالب الغربى المسيحى، ولم يلقوا بالاً لحظة واحدة للديانات الأخرى وفلسفاتها ونزعاتها الإنسانية.. حسناً يا سادة الغرب، لقد تغير الزمن، ولتعلموا أننا قد أصبحنا عشرات من البلدان الإسلامية فى الأمم المتحدة، نمثل ما يقرب من مليار مؤمن».

ولنحاول أن ننفذ إلى أبعد من ذلك فى تدليلاتهم.. إن آيات الله فى طهران يرون أن مسألة حقوق الإنسان لا شأن لها بالجميعات التشريعية للأمم، فمسألة حقوق الإنسان فى يد الله، وهو وحده الذى يقررها، إنها مسألة فلسفية، لا قانونية، وكل ما تتضمنه ينبغى أن يفسر ويناقش ويرفض أو يقبل من جانب فلاسفة لا ساسة.

ثم ينتهون إلى القول «وعلى أى حال فماذا يساوى إعلانكم الشهير لحقوق الإنسان، الذى صاغه بشر خطاءون.. فى مواجهة تعاليم يمليها الله، وهو من لا يأتيه الخطأ من بين يديه ولا من خلفه»؟.

وقد أسَر لى مندوبو اللجنة الدولية للصليب الأحمر بأنهم اصطدموا بنفس

الحجج حين كانوا يحاولون الدعوة إلى أن تطبق جمهورية إيران الإسلامية اتفاقيات جنيف... التي صدرت بدورها عن بشر خطائين.

هولوكست ثقافي عالمي

إن كل هذه التدليلات التي لا ترد إنما تثبت من جديد أنه لا يكفي أن تقيم قلاعاً من الورق لكي تبني إيماناً. فقد يعتقد البعض أنه مع مولد الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد عالمية القواعد والاتفاقيات التي تحكم العالم فإن بوسع آلاف الرجال الطيبين، المتشابهين جميعاً، والذين يرتدون أزياء متشابهة ويتحدثون جميعاً الإنجليزية في قاعات متشابهة، مغطاة بالموكيت ومكيفة الهواء بطريقة متشابهة، أن يلغوا الفوارق.

غير أنهم لم يقيموا سوى (ديكور)، وخلقوا إحساساً مدمراً يفقد الهوية، وعندئذ يدافع الناس عن أنفسهم قدر ما يستطيعون، وينطوون على ذواتهم وأديانهم وقومياتهم وخصوصياتهم، وتتفجر في كل مكان شعل حارقة ليس لها من رسالة إلا أن تعلن «وأنا أيضاً موجود».

وكيف لنا عندئذ أن نفهم إيران قليلاً بالرغم من كل التخبطات؟ وعلى غير هوى أولئك الذين يعتقدون دائماً وأبداً أن احترام حقوق الإنسان يسير يداً في يد مع الكوكاكولا، كيف لنا ألا نشعر بقدر من التعاطف مع هذا البلد الذي يضم ستين مليون نسمة.. سلالة حضارة ترجع إلى ثلاثة آلاف عام، حين يحاول أن يقاوم المحرقة الثقافية التي يخضع لها الغرور الأمريكي العالم بأسره؟

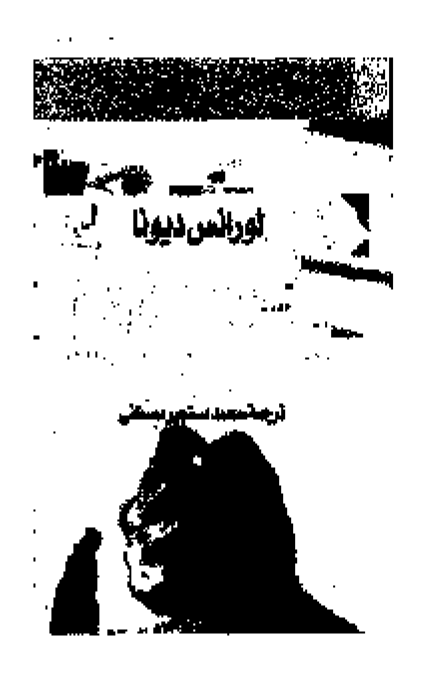
المحتويات

الصفحة

الصفحة

الصفحة

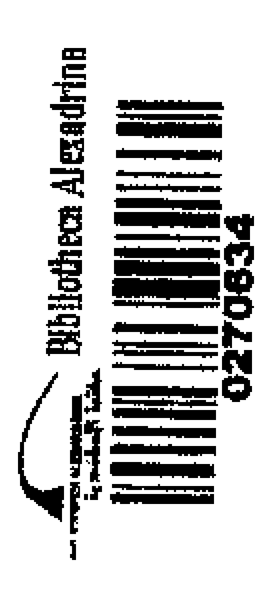
الصفحة



صور حية من إيران

هذا نوع من التحقيقات الصحفية لم نعد نراه كثيرا اليوم، على مستوى التحدى الذى يطرحه الإلمام ببلد مبهم ملىء بالمفارقات مثل جمهورية إيران الإسلامية، وهكذا اتشحت لورانس ديونا بالشادور الإيرانى الإجبارى (فكيف يمكن لامرأة فى إيران - حتى إن كانت أجنبية - أن تنسى أنها امرأة؟)، وطافت البلاد طولا وعرضا، ساعية إلى فهم ثورة تختلف عن كل الثورات الأخرى.. وجاءت النتيجة هذه الصورة الحية الشخصية للغاية لإيران المعاصرة.. ذلك التزاوج العسير بين الجمود الثورى وثقافة فارس العريقة الطيبة المحبة للحياة.

منذ أكثر من ثلاثين سنة تقوم الكاتبة السويسرية لورانس ديونا بتغطية الشرق الأوسط بقلمها وعدستها.. من اليمن إلى إيران، ممثلة لكثير من الصحف وللتليفزيون البريطانى «تليفزيون أنباء الجبهة».. صدرت لها تسعة كتب أخرى، ترجمت منها ثلاثة إلى العربية، وأقامت معارض لصورها فى أوربا وكندا والولايات المتحدة.. نالت فى عام ١٩٨٧ جائزة اليونسكو «التعليم من أجل السلام».



تصميم الغلاف: جوبى

